شربل داغر

وصية هابيل

رواية

فريق متميزون
E-BOOK

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

وصيّة هابيل

(رواية)

شربل داغر

عن الرواية..

هذه الرواية تحثّنا على قراءة الأساطير الخالدة بأسلوب عصري يواكب الـ"إي ميل"والـ"غوغل"والـ"أس.أم.أس".فعبر أسلوب المؤلف غير البعيد عن هذه التكنولوجيا ومن خلال الشخصيات القريبة منا والساكنة في أحيائنا-ومنها شربل داغر نفسه-والحوارات المكثفة والرموز المفكّكة والمركّبة كأننا نقرأ من جديد قصة قاين وهابيل. وكأنهما موجودان معنا وفي كل مكان.
وتنطلق الرواية من الواقعة التالية: يتعقب أحد الصحافيين قريباً أو أخاً لمؤلف اسمه شربل داغر، بغرض التثبت من صراع دامٍ طاولهما في فترة سابقة من حياتهما.تستعاد قصة قابيل وهابيل كرمز يجسد غدر الإنسان بأخيه. شخصيات تبرز وأحداث تتقاطع من خلال اللغة الحوارية التي شكلت البنية السردية الروائية. حوار بين شخصين تكون بمثابة مكاشفة تتيح للكاتب القومي في عمق الإنسان وكشف هواجسه وأفكاره وزلاته. والمضي بعيداً في استدراجاته التي تأتي بمثابة تأملات تتيح للقارئ والوقوف على فلسفة الحياة.

......

"من خلال هذه الرواية عاد شربل إلى مواقع طفولته، من أجل أن يلتقط تلك اللحظة الغامضة التي وجد نفسه فيها وقد اشتبكت بذلك الشبح الذي صار يرافقه أينما مضى: قرينه الذي يكتب بالإنابة عنه وباسمه." صحيفة الحياة
"حواريّة، شاعريّة، واقعيّة معاً... وهذا النوع من الروايات قد يكون سهلَ القراءة، مُربكها في آنٍ، لكنّه صعبُ الكتابة ومربكها أيضاً، لأنّه يحتاج الى مقدرة هائلة على التحكّم بالمشاهد من خلال الجمل القصيرة المعبّرة، والصمت الذي يعبّر عنه بالبياض الذي يفصل بين الفقرات أحياناً. وفي مثل هذه الأحوال يكون القارئ ملبّسَ الصفات للبطل، وذلك بحسب أفكاره وآرائه وأفعاله. تقدّم الرواية بأسلوب بعيدٍ عن القالب السرديّ الذي تعورف عليه، حتّى قارب أن يكون قيداً، مجموعة من القضايا، مازجاً بين الرواية الدينيّة والميثولوجيّة، مرتكزاً على التقنية الحديثة، كالإنترنت، الذي يعتمد كوسيلة للتواصل بين أطراف الرواية..." هيثم حسين في جريدة السفير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«فسأله يسوع قائلاً ما اسمك. فقال جوقة»

(إنجيل لوقا، ٨ – ٣٠).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال»

(محمد بن سيف الدين بن أديمر، من مواليد بغداد في ٦٣٩ للهجرة: «الدر الفريد وبيت القصيد»، مخطوط، المكتبة السليمانية، استانبول).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«إنهم (إنهما) معاً، ولكن ليس في صورة أكيدة»

(موريس بلانشو، «الانتظار، النسيان»).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«متى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكناً»

(الجاحظ، «البيان والتبيين»).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«توجيه التحية (إلى أحدهم) هو في حد ذاته حدث جمالي»

(إيمانويل لفيناس، في حوار، ١٩٩٠).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

١

— التحية الخالصة، وبعد

يؤسفني إزعاجك. ألك أن تجيبني عن هذا السؤال: من تكون بالنسبة إلى الكاتب شربل داغر؟

مع خالص الشكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— التحية الخالصة، وبعد

أعرف أنك استقبلت رسالتي الإلكترونية السابقة من دون أن أتلقى بعدُ جواباً منك… أعود فأسأل: من تكون بالنسبة إلي الكاتب شربل داغر؟ ذلك أن العودة إلى المُشغِّل الإلكتروني «غوغل» أوقعتني في زحمة أسماء، في تشابكات، لم أحسن التنقل فيها، بين لاعب كرة سلة وممثل وكاتب وأستاذ جامعي وغيرهم من عائلة داغر، فيما أفادني قريب لي في «سد البوشرية» عن جار له، اسمه: شربل داغر، ويعمل في التجارة بالمفرق.

مع خالص الشكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— حضرة الأستاذ الكريم،

تلقيت رسالتَيك فعلاً، من دون أن أجد داعياً لجواب: لستُ في حفل تعارف، ولستُ ملزماً بإبراز بطاقة تعريف.

مع خالص الاعتذار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حضرة الأستاذ المحترم،

التحية الخالصة، وبعد

شكراً على جوابك، وإن كان سلبياً. أعود فأكرر سؤالي: ألكَ صلة قربى بالكاتب شربل داغر؟

إذ إن في الجواب عن هذا السؤال — خاصة إذا كان إيجابياً — ما ينير دروباً منحدرة ومظلمة، ما قد يؤدي إلى صخرة منفردة في كرم.

مع خالص الشكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— حضرة الأستاذ الكريم،

عن أي صخرة تتكلم؟ عن أي كرم تتحدث؟

ألكَ بإرسال أسئلتك لكي أرى ما إذا كانت لي صلة بها؟ وما إذا كان في إمكاني الرد عليها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— حضرة الأستاذ المحترم،

التحية الخالصة، وبعد

بين يدي وثائق مرتبطة بالكاتب شربل داغر... أخشى إرسالها بالبريد، عدا أنني أفضل التحاور بخصوصها معك — إن رغبت في ذلك —، بخاصة وأن جوانب منها تتصل بك، على ما أظن.

مع خالص الشكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أشكركَ على قبولك دعوتي.

— دعوة للقاء فقط.

— ألهذا اشترطتَ الاجتماع بي في حديقة؟

— نعم.

— لماذا؟

— من دون شهود. من دون تسجيل.

لم تأتِ بآلة التسجيل، كما استأذنْتَني، أليس كذلك؟

— لك أن تثق بي: هذا أولُ بند في العقد بيننا.

— ليس هناك عقد بيننا.

— ألا تعتقد أنه لم يعد من الممكن الاكتفاء بتبادل الرسائل، وبالمحادثات الهاتفية؟

— هذا لا يرضيك؛ لكنني لم أجد بعدُ ما يرضيني بدوري.

— ألي في معرفة السبب الذي قادك إلى اختيار هذه الحديقة؟

— ها أنا أكتشفها معك...

قرأتُ في الصيف الماضي، في مذكرات أحدهم، عما كان يفعله، فيما مضى، سفيرا الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي السابق في جنيف: كانا يلتقيان في حديقة، بناء على دعوة أي منهما، من دون أن يكون للآخر حق الرفض... كان لهذا أو لذاك الحق في طرح ما يشاء من مقترحات، من عقود، من تسويات، من دون أن تكون ملزمة له ولا للآخر.

— حوارات تمهيدية، إذا جاز القول.

— قد تكون تمهيدية، بل تدشينية. وقد تكون كلاماً في الهواء.

— لا شيء يضيع في الهواء: يبقى مختزَناً فيه.

— إلا أنه غير ملزم.

— لكنه يكشف نوايا هذا أو ذاك.

— طبعاً.

كانا يتمشيان في الحديقة، من دون أن يدونا أو يسجلا كلاميهما.

أعود فأكرر: لم تأتِ بآلة التسجيل، أليس كذلك؟

— بلى.

— أهي تعمل؟

— نعم.

— أينها؟

— هنا. ألا تراها؟

— أهي هذا القلم في جيب سترتك الخارجي؟

— تماماً.

— إلا أنك لم تتقيد بشروطي.

— بلى. تركتُ لك حرية اختيار المكان. ألا يكفي؟

— لا يكفي... ماذا لو لم أوافق على اللقاء بك؟

— سيكون هذا التسجيل غير نافع. سيبقى في الهواء، لا في إذني، ولا في أذنك، ولا في مسامع أحد...

— ... حتى هذا الذي يمعن في تتبع مشيتنا؟

— عمن تتكلم؟

— ألا ترى ذلك الشاب، صاحب المعطف الرمادي، الذي يمسك بدفتر ويدون عليه؟

— ما له؟ ... هو ساهمٌ فوق مقعده.

— لا، قد يدون كلامنا عن بعد.

— كيف له أن يفعل ذلك؟

— ألا تعلم أن هناك من يقرأ الحروف عن بعد؟

— أتظن أنه قادر على متابعتنا، فيما لا أحسن تبادل كلمتين معك!

ألنا أن نستريح فوق هذا المقعد؟

— ...

— أتدخن؟

— لا، شكراً.

— هناك مقهى، على ما أرى...

— ... سنمشي فقط.

— قد تضيع في الزحام...

— عن أي زحمة تتحدث!

ستجدني، مثلما سبقَ لك أن وجدتني.

— لماذا تتهرب من النظر إلى وجهي؟

ألهذا ترفض الجلوس؟

— لا تسعى إلى التباسط معي. هذا لن يفيدك بشيء.

— ماذا يفيد؟

— أتعرف ماذا قلتُ لنفسي بعد انتهاء المكالمة الهاتفية بيننا يوم أمس: «ألا يريد — أي أنتَ — أن يجعل مني جاسوساً؟».

— ربما، غير أنني أفضل لفظ «التحري»، أو «المحقق».

— أيعقل أن أقبل بأن أصير «تحرياً» أو «محققاً»!؟

— في القول مبالغة.

— ربما، إلا أنني لم أجرب هذا أبداً من قبل.

— بما أنها مرة أولى، فهي مثيرة، أليس كذلك؟

— قد تكون مثيرة لك، لا لي... عدا أنني لا أحب التكلم.

— إلا أن عملك يستدعيه، بل يتطلبه، على ما أعرف.

— قد يفسر هذا ذاك.

— لك أن تساعدني.

أنت تحتاج إلى هذا أكثر مني.

— في ما تقول شيء من الوقاحة.

ها أنت تستعيد كلاماً سبق أن ذكرته لي!...

أظن أنني سأغادرك، مع خالص الاعتذار.

— إلا أنك وافقت على المجيء، وعلى الاجتماع بي.

— لم أوافق إلا بعد أن كشفتَ لي أمس أن في جعبتك وثيقة دامغة. ما هي؟ لو تُظهرها، أرجوك.

— أتعلم أن التكاشف بيننا يشبه — مع خالص الاعتذار — العلاقة التي يطلبها الزبون مع المومس، أو المومس مع الزبون؟

— مَن الزبون ومن المومس؟

— ألا ترى أنني أستعمل تشبيهاً مشابهاً لما قلتَه عن السفيرين؟

— كيف ذلك؟

— السفير، الزبون، المومس: بدل عن ضائع.

— أنا بدل عن من؟

— المهم — كما تعرف — هو العلاقة بيننا، بما يجري، لا هوية هذا وذاك.

لي ملاحظة أخرى: ها أنت، اليوم، كما في مرات سابقة، تُريد إظهار ما بيننا على أنه من تدبيري، وأنه قد تم استدراجك مثل فتى غرير؟

— ...

— مثل صبي أوصلوه للمرة الأولى إلى حي البغاء.

— بالإذن، أنا ذاهب.

— لماذا تستأذن؟ اذهبْ.

يمكنني على أي حال الكشف عما جرى بيننا.

— أمنعُك من ذلك.

— أكشفُه من دون كشف الهوية الصحيحة.

— قد لا يثير فضول كثيرين.

— أأنت معني إلى هذا الحد بفضولهم؟

— ...

— ماذا إذا أذِنتُ لك بإمساك القرار النهائي؟

— كيف ذلك؟

— أن أسلمك حاصل التحقيق، على أن تقرر وحدك وجهة استعماله الأخيرة.

— هذا يضمن الوجهة الأخيرة، كما تقول، لكن ما يضمن، أو يغري — كما تقول — بإجرائه أساساً؟

— أأعود إلى حي البغاء؟

— انتقلتُ، واقعاً، إلى حيز آخر.

— ما هو؟

— الشطرنج.

— كيف ذلك؟

— أنت تستطيع في هذه اللعبة توقعَ أكثر من ضربة، أو نقلة تالية، إلا أنك لست قادراً على توقع كل شيء في مجرياتها. أليس كذلك؟

— غير أنك تقوى على إيقافها ساعة تشاء.

— لكن من يتوقف يخسر.

— يبدو أنك شددت التفكير في الشروط والضمانات والعمليات... ألا تكون أنت من دعاني، فيما نجحتَ في إظهار الأمر على أنه من تدبيري؟

— لا. هذا الحوار يحرجني؛ قد يجرحني من جديد.

— هذا ما قلتَه. هذا ما تقوله.

أليس ما يدعوك إلى الإدلاء بشهادة؟

— لا، فيه ما يدعو إلى كشف حسابات، وربما إلى محاسبة.

— أنا أُسَهِّل عليك قيامها، و... بالواسطة.

— باتت اللعبة مركّبة.

— أليس هذا ما تبحث عنه؟

— ربما.

— أنتَ تدبرت، من دون شك، جُملاً وجملاً لتقولها له.

— لستُ عشية موعد غرامي.

— إلا أن الشهود يفعلون ذلك قبل انعقاد المحكمة.

— أنتظرُ منذ وقت بعيد، من دون أن يجيب عن أي من رسائلي، من دون أي اعتذار...

— لو تؤجل هذا الآن.

— ألم نبدأ بعد!؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— من أين أبدأ؟

— من حيث تشاء.

— ماذا لو نبدأ من الرصاصة؟

— عن أي رصاصة تتحدث؟

— عن تلك التي حدَّثْتَني عنها.

— متى؟

— في زلة لسان... في مكالمة هاتفية.

— يصعب عليَّ أن أبدأ بها... ما أن أتحسس موضعَها توجعني...

— حتى اليوم؟

— حتى اليوم.

— ألم تنزعها بعد؟

— لا. أخشى من عواقب انتزاعها.

— إلا أن الأمر يحتاج إلى تحقيق، وإلى شهادتك خصوصاً.

— سأكون جاهزاً بعد اكتمال عناصر التحقيق.

أعود فأكرر: يمكن أن تبدأ من حيث تشاء.

لماذا لا تتوجه إلى غيري؟

— أأنا حر إلى هذا الحد؟

— طبعاً... أو على الأقل: حتى يثبت العكس.

— سؤال جانبي: لماذا أتيتَ بي إلى هنا؟

— ما له؟

— أكاد أن لا أسمعك في هذا الزحام.

— لكن آلتَك شديدة الحساسية، على ما قلتَ لي. لا يفوتها شيء... حتى سعال هذا الشحاذ المستلقي على الأرض.

— غير أنني أشعر كما لو أننا لا نزال نتبادل الرسائل الإلكترونية!

— ماذا تريد؟ أتريد أن نتبادل ال«تشات»؟

— هناك لفظ أنسب لهذا.

— ما هو؟

— الدردشة الإلكترونية.

— أأنت ابتكرته؟

— لا، هو.

— ربما نلجأ إليها، إن شئتَ...

لقد انتهيتُ إلى وضع مخطط: أتريد الاطلاع عليه؟

ألك خيار معين في تسلسل ما سيجري؟

— أنت تدير الاستجوابات: ألم نتفق على ذلك؟

— لكنك شريك، لا تنس.

— ماذا تطلب تحديداً؟

— من أين نبدأ؟ كيف نتقدم؟

— يمكنك أن تبدأ من أي نقطة تشاء: ستقود حكماً إلى حيث نحن.

— أنبقى هنا؟

— يمكننا أن ننتقل إلى رصيف القطارات، وراء هذا البهو.

— لا أطيق المشي.

— بخلافي.

ألم تطلب مني أن أستقلّ القطار معك؟

— إلا أننا لم نشتر بطاقة الرحلة.

— عليك أن تقنعني بجدوى ما تقترحه على أي حال.

— ... أو أن أستدرجك.

— تماماً.

— المهم، أن يأتي الجواب مناسباً للسؤال.

— مثل شفتين لقول واحد، أو لأكثر من قول في مسألة واحدة.

— هذا قول أدبي.

— أتعتقد ذلك؟...

لعله لا يعود لي.

— أيعود له؟

— ربما حفظته عن ظهر قلب، وأردده على مسامعك... لهذا أخشى الكلام.

— ماذا تخشى فيه؟

— ألم تسمع بأن الكلام مشاع، أرض سائبة، يدوسها من يشاء، ويقطف ثمارها البرية من يشاء؟

— أتفضل الكتابة؟

— لا. هو اختارها، لا أنا.

— وأنت ماذا اخترت؟

— أن أرى.

— كيف ذلك؟

— ألا ترى أن الآلاف احتاجوا لكتابة مئات آلاف الصفحات لاستبيان ما قاله فنسنت فان كوخ؟

— هذا درس جامعي...

أكان لي أن أدعوك إلى حوار مرفق بالصورة؟

— لو فعلتَ ذلك، لما كان لك أن تدور مثلما تدور منذ شهر ونيف؟

— ماذا كان جرى؟

— لكان ظهر امتعاضي مما يجري.

— لكان ظهر صمتك بالأحرى.

— أليس للصمت ما يقوله أيضاً؟

— أنعود إلى الدرس الجامعي؟

— لا، ألم تسمع بوصية هابيل؟

— من هابيل هذا؟

— أخ قاين.

— أفي «العهد القديم»؟

— نعم.

— ماذا تقول وصيته؟

— ما كُتبت بعد.

— وكيف له أن يكتبها بعد وفاته!؟

— ألم تنتبه إلى أنه لم يعترض حين اقتاده قاين «إلى الكرم»، وفي ترجمة ثانية، أقدم، «إلى الصحراء»، وفي ترجمة ثالثة، «إلى الحقل»؟

— ألم يتكلم؟

— لا، بل صمت... مضى برفقة أخيه فوق دروب عديدة قبل أن يصل إلى الكرم... اجتاز الدروب كلها صامتاً.

— لعله كان يدرك أنه متجه إلى موته...

لماذا لم يعترض؟ لماذا لم يتكلم؟

— لم يوجه له أحد السؤال.

— وماذا لو سأله قاين؟ أو غيره؟

— لكان أجاب... لكان أطلعَه على وصيته.

— وما كانت؟

— لك أن تسأله.

— إلا أنه كان يبكي...

— كان لك أن تسأله بعد أن يكون الدمع قد جف...

— ألا يقوى على الكلام وهو يبكي؟

— لا، لأنه يقوم بعمل آخر.

— أي عمل؟

— كان يرى... كان يتفقد ويعاين ويحفظ عن ظهر غيب...

— لكنه كان يبكي... كيف يبكي ويرى في آن؟

— كانت دموعه تغسل الصور والمشاهد والوجوه والتعبيرات والحركات والأفعال قبل ترتيبها...

— ألا يكون بذلك قد غسلها مما أوجعه وأبكاه؟

— لا، أبداً. فالصور — إذ يحفظها — تبقى مختزنة بمائها.

— هذه صورة فعلاً، لكنها أدبية.

— لا، أنت مخطئ.

ألم يحدث لك، وأنت في جنازة، في تأبين، أن انتبهت إلى الدموع التي تفاجئ، بل تسبق الخطيب إلى عينيه؟

— ...

— يكون الخطيب قد كتب كلمته قبل التأبين من دون أن يبكي، لكنه بمجرد أن يتلفظ بكلمة، باسم الفقيد ربما، ينفجر فيه البكاء.

— جميل ما تقول، لكنني ما زلت مصراً: هذه صورة أدبية.

— لا، يكفي أن تسأل، أن ترود، أن تتفقد المياه الجوفية... يكفي أن تُحسن توجيه الأسئلة.

— لمن؟

— لهابيل.

— أتكون تلك وصيتَه؟

— نعم.

— غير أنني أحتاج إلى شهادته... أتكون وصيتَه؟

— ...

— لماذا بكى؟ أبكى قبل المقتلة؟ أفي الطريق؟

— ...

— لماذا تبكي؟

— ...

— عفواً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ...

— لماذا وافقتَ؟ هل وافقتَ فعلاً؟

— لأننا ندور، ولا نقصد مباشرة.

— إلا أنه يتيح التهرب أو التملص.

— هذا يحتاج إلى شطارة، غير أنه لا يخفى على أحد: يَظهر المتهرب أنه قد تهرب، أو قد تلطى خلف جواب غير مقصود.

— بل الصمت نفسه، أو الامتناع عن الجواب، دالٌّ في حد ذاته.

— دالٌّ في سياق ما يجري.

— طبعاً، السياق لازم.

— ووجودي إلى جانبك، أهو لازم؟

— قد تستغني عنه.

— قلْ لي: هل يمكن سماع الحوار في الاتجاهين؟

ألن يتم التمييز بين ما أقوله وما تقوله؟

— لماذا تحادثني من دون أن تنظر إلى وجهي؟

— تعود لتقول القول عينه! ما الضرر في ذلك!؟ ألا تكون تعمل وفق مقتضى الأغنية التي تقول إن عليك أن تقف قبل أن تكلمني؟

— لأنك إن لم تنظر لي وجهاً لوجه، فهذا يعني أنه كان في الإمكان إجراء الحوار عن بعد، أو ربما بالمراسلة.

— وماذا إن توجهتُ إليك بنظري؟

— سأكون أخاطبك فعلاً.

— إلا أن هناك من يتنصت إلينا.

— عمن تتكلم؟

— ...

— من تقصد؟

— هو هنا حكماً.

— غير أنه لا يشارك، أليس كذلك؟

— بلى. بمجرد وجوده — الصامت، الثقيل — يشارك.

هو حاضر، وإن لا يتكلم.

— وماذا لو توقفنا؟

— لا يتوقف.

— كيف ذلك؟

— يقوى على متابعتنا من دوننا. حاضر معنا. حاضر بعدنا.

— أتريد القول إنه أبقى منا؟

— هو ما يديمنا بمجرد أن يتنفس الكلام. هو حياتنا المحتملة.

— لنصمت.

— سيبقى صامتاً، غير أنه يراقبنا.

قد تنطفىء الأضواء، وتهدأ الحركة، هو بدوره سيبقى هامداً غير أن عينيه متنبهتان، وأذنيه متنصتتان، بمجرد هبوب أصوات.

— أأضع قناعاً على وجهي؟

— لا أحتاج إلى أن أراك لكي أحسن الكلام.

— أأنا محاور أم متكلم؟

— سنرى.

— سترى وحدك، بمفردك. ألي أن أرفض، أن أتوقف؟

— طبعاً. هل اتفقنا؟

— اتفقنا.

— على ماذا؟

— على أن يجري الكلام بيننا.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لماذا تريد أن تعود إلى مشاهد بعيدة؟ إلى مشهد الرصاصة؟

— انتظرتُ سنوات وسنوات من دون أن يقوم بمكاشفة، من دون أن يصدر عنه تكذيب أو توضيح.

— لماذا؟

— منعاً للالتباس.

— أنت تقوم بهذا بعد نفاد الصبر، إذن.

— تماماً.

— واستجابة لدافع باطني...

— ... ولما طالبني به غير قريب وصديق.

— هو سردٌ وإفصاح في آن...

— ... وبينهما.

أتهيبُ من فعل هذا. ترددتُ طويلاً قبل أن أقدم على خطوتي هذه.

أشك في أنني أقدمت عليها بملء إرادتي.

— ألا تزال على قدر من البلبلة؟

— كيف لا؟! سأدعُ الهواء يتسلل إلى ما كان مجتمعاً على نفسه.

— ولماذا احتجتَ إلى هذا؟

— أريد أن أتنفس.

— أتريد أن تتحكم بكل ما يصدر عنك؟

— اسمعْ ما احتفظتُ به من «نزوى»: «هناك خيارات، بل استراتيجية، إلا أنها ليست «مبرمجة»، وليست مسبوقة التنقلات والتوقفات والانتهاءات. ذلك أنني طلبت أن أكون مثل من «يرمي بجسمه في بحر»، أو من يصل إلى غابة بعينها، مدركاً مسبقاً أنها شاسعة وكثيفة، على أنه يَدخلها من دون خريطة، من دون هدف غير التنزه؛ وهو إن خرج منها صدفة، ومن قبيل الخطأ، يعود إليها من جديد، طالباً المتاهة عينها، سائلاً عن العلاقات التي تبنيها خطواته، في سبل يخترقها أكثر مما يسلكها».

أنا موافق تماماً على ما ورد فيها.

— أهذا لك أم له؟

— لماذا هذا السؤال؟

— لأنه كلام أقرب إلى درس كتابي.

— ...

— لا زلتُ أصرّ على القول بأنك تستعد للإفصاح بقرار ذاتي.

— لا أحب «الإفصاح» الوارد في عبارتك، إذ يشير إلى رغبة في الاعتراف.

— ألا تشعر بذنوب تحتاج إلى غفران؟

— لا، هو الذي اقترف الذنوب؛ هو الذي أطلق الرصاصة.

— غير أن ذلك حصل في مواجهة.

— لا، كنت جالساً على الأفرشة المتكدسة...

— وبعد؟

— ...

— ألا تريد أن تسرد مسار الرصاصة قبل انطلاقتها؟

— ...

— ألا تشعر بأنك ترتب صورة مشهد؟

— ...

— لماذا تطلب الجلوس — على الرغم من صمتك الآن — تحت أضواء؟

— كيف ذلك!؟

— كأن تدعو هذا وذاك وغيرهما إلى لقاء، ثم لا تلبث أن تختفي!

أين أخفيتَ الأفرشة؟

— ...

— لماذا لا تجيب؟

— لأنك تُوقفني على حاجز تفتيش!

— وما الضرر من ذلك؟

— هو أنني في مكتبك.

— أتشعر بالخجل؟

— لا، لكنني لا أحسن الخروج، إن شئتُ.

فقط أتبين على الحائط «تنبيهات السلامة» عند حصول حريق.

— أتفتش عن سلّم النجاة؟

— ...

— لعلك تخاف.

— لا، لكنني لم أُحسن بعدُ معرفة الدوافع التي قادتني إلى الجاري بيننا.

— هل تشعر أنك ارتكبت أخطاء جسيمة تستوجب مثل هذه التوبة الخفية؟

— لا، هو الذي ارتكبها... لم يعتذر، أدار ظهره ومضى.

— ... بعد أن أطلقَ الرصاصة؟

— تماماً.

— هل أطلقَها بعد مشادة، أم انطلقتْ عفواً؟

— ...

— لماذا توقفتَ؟

— ما أن أتحسس موضعَها توجعني.

— سبق أن قلتَ هذا.

لا تزال تُمسك عن الكلام!

ألا تكون تتقيد برقابة مسبقة؟

— قد تكون نوعاً من النزاهة، من التشدد مع النفس، وقبل الآخر.

— ربما... ألا يشتمل العقد بيننا على أسئلة استفزازية، بل تفتيشية؟

— بلى، إلا أنني لم أقبل بهذا بعدُ، وحتى هذه اللحظة.

— أسَتقبله في لحظة أخرى؟

— ربما.

— ماذا نفعل؟ أأتابع؟

— لنتوقف قليلاً.

— وماذا عن الرصاصة، وأنتَ على أفرشة؟

— هي موضبة الآن.

ألا تعلم أننا كنا، في الصباح، نطوي أفرشتنا، ونضع بعضها فوق بعض، ويتحول مكان نومنا إلى غرفة استقبال؟

— كان ذلك في القرية...

— ... وفي بيتنا الأول، الأشهر الأولى، بعد نزولنا إلى المدينة.

— هل انطلقتْ الرصاصة على مرأى من الجميع، قبل الاستيقاظ؟

— لا. بيننا. وحدنا...

حتى أن أنفاسنا كانت محبوسة.

— من دون شاهد.

— بلى، كان هناك ثالث. اكتشفتُ هذا بعد وقت، بعد سنوات.

— أكان متخفياً؟

— ...

— من كان؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أيمكنني أن أبدأ حيثما يحلو لي؟

— لا تزال تسأل السؤال عينه!

— كنت أنتظر منك جواباً مماثلاً. ولكن كيف تبرره أو تفسره؟

— هذا يناسبني، يوافق أحوالي. مثل لوحة لجورج براك، لا أتوانى عن النظر إليها، والتأمل فيها.

— براك، المصور التكعيبي؟

— نعم.

— لا أعرف الشيء الكثير عنه لكي أستدل بذلك عليك. أعرف له عملاً شهيراً: «التلصيق»، كما تحب أن تقول، أي «الكولاج».

— تماماً.

— وما يجري بيننا، أهو من «التلصيق»؟

— ربما. إلا أنني أتذكر براك في معرض الكلام عن العلاقة بين المسطح والعميق.

— لم أفهم. ها أنت تضعني في مواضع محرجة.

— هذه العلاقة تستوقفني في العمل الفني التكعيبي، وهي تميزه على ما أرى. ففي العمل التجريدي تنقطع العلاقة تماماً مع المرجع الطبيعي أو الإنساني؛ والشكل مسطح في صورة لازمة. أما في العمل التكعيبي فالأمر مختلف: الوجه لا يزال وجهاً في رسم لبيكاسو، إلا أنه مرسوم مثل خيوط متتابعة من دون تظليل أو تغوير... هذا يُبقي علاقة مع المرجع، ويعدلها في آن. وهذا يعني أن الفنان يستعمل قياسين فنيين في معالجة العمل الواحد.

— شكراً، دكتور.

— ...

— إلا أن هذا يخالف مبدأ الكتاب.

— ومَن تحدث عن كتاب!

— في إمكانك أن تبدأ من أي مكان: أن تنتقل من دون أن تتابع.

— هذا كشكول تائه فوق دروب... أو جعبة درويش تحتوي على كل ما يحتاج إليه...

— ... القلم مثل الخبز اليابس...

— ... غطاء النوم مثل الوصية.

— لماذا الوصية؟

— لأن الموت قد يدهمه على الطريق... له أن يكون مستعداً.

— طبعاً، أستاذ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— في المرة الماضية حدثتَني عن براك، وهذه المرة تدعوني إلى لقاء في متحف!

— وما الضرر من ذلك؟

— تلتقي بي مع غيري دوماً. هذا لا يوفر شروطاً حسنة للتبادل بيننا.

— ماذا يوفر؟

— يوفر حوارات جانبية، متقطعة في أحسن الأحوال.

وهذا لا يتيح تركيز الأسئلة أو تدافعها المتدفق.

— إلا أن الآلة لا تفارقك.

— هذا لا يكفي... هي تحتاج إلى سياق... تحتاج إلى تركيز عينيَّ... مثلما يقع نظر المومس على الزبون...

— ... أو الزبون على المومس.

— أتعرف أن من لا يحسن الكلام، أو يخشاه، يستحسن الذهاب دوماً إلى المومسات؟

— أهذه خبرتَها أم قرأت عنها؟

لماذا تحتاج إلى الآلة؟

— لكي تبقى عيناي حرتين، تراقبان ما يتخلل الكلمات، ولا تنقله أبداً.

— يجب أن نتقدم...

— ... لو نخرج قليلاً من الصف.

— أأنت منزعج؟

— تماماً.

إن لم تكن أمامي، بمتناولي، إذا جاز القول، لا أحسن مخاطبتك.

— لكنني لا أحب التكلم.

— ماذا تحب؟

— أحب أن أرى.

— سبق أن قلت هذا... ألا ترى لكي تتكلم؟

— ليس دائماً. أرى أحياناً لكي أرى من جديد، لكي أغمض عيني وأستغرق في مشاهد متخيلة، أو قيد التركيب...

— لعل مشهد الرصاصة متخيل، عدا أنك تتحدث عنها من دون أن تشير ما إذا كانت لمسدس أو لبندقية...

رصاصة من دون سياق...

— أنعود إلى صف الزوار من جديد؟

— لا، سنبدد الوقت في الحديث عن المعروضات...

سيكون علي أن أتبعك حيث تمشي، أن أتوقف حيث تتوقف، أن أتلقى تعليقاتك على هذا العمل الفني أو ذاك بدل أن أركز على أسئلتي...

— إلا أننا سنكون معاً.

— وماذا إن هربتَ مني؟

— كيف ذلك؟

— ماذا لو ضعتَ؟

— ستنتظرني عند بوابة الخروج.

— لستُ في مطاردة، عدا أن عملي تحول إلى مشقة.

— إلا أن مفاجأة قد تنتظرك عند بوابة الخروج.

— ما هي؟ أينها؟

— في جيبي.

— ما هي؟

— لو كشفتُ عنها لما عادت مفاجأة.

— إلا أنها صغيرة لكي تقبع في جيب سترتك!

— لكنها قد تكون ثمينة، وبقيمة مفاتيح تفضي إلى كنوز.

— أهي أرقام خزانة سرية؟

— كسبتَ.

— أي خزانة؟ ما فيها؟

— أرقام عدد من الأهل والمعارف، فضلاً عن عناوينهم.

هل نقف في الصف من جديد؟

— لا، سأنتظرك عند بوابة الخروج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أنا شربل داغر ضاهر دوميط (الخوري) أنطانيوس (الثاني) هاشم (الخوري) أنطانيوس (الأول) داغر، الواضع اسمه في مطلع هذه السطور، المعلن عن نسبه العائلي، قررتُ الكشف، من دون مواربة، عما لي أن أقول، بوصفي الذي ينقر على هذا الحاسوب الحروفَ عينها التي تنتظم فوق أوراق المطابع للمؤلف الحامل اسم: شربل داغر. وبما أنني لا أتوخى إثارة فضيحة، ولا الذهاب إلى مأمور النفوس، أو إلى الشرطة، بدعوى انتحال اسم أو صفة، لجأت إلى الحروف عينها التي يلجأ إليها، وإلى وسيلة قريبة مما يفعل.

— غير أنني أطلب إيضاحاً: من أنت بالنسبة إلى من ورد اسمه، في «فتات البياض»، بوصفه «شربل»، وتحدده القصيدة على أنه «يشخر» في الصفحة ١٠؟

— بداية مدوية، بل استعراضية، على ما ألاحظ.

— ومَن أنت بالنسبة إلى من ورد اسمه، «شربل داغر»، في مجموعة «إعراباً لشكل»؟

— ...

— سؤال أخير: من أنت بالنسبة إلى من ورد اسمه في «لا تبحث عن معنى لعله يلقاك» بوصفه: «ش. د.»؟

— ها أنا لا أقوى على التكفل بهذه الحروف — وحدي — من دون أن ينازعني فيها واحد بل أكثر!

— أتدردش معي أم تكتب لنفسك؟

— أرجوك، لستُ بصدد الحديث مع أحد.

— غير أنها أسئلة واجبة.

— ربما.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

٢

— هل في إمكانكَ إرشادي إلى بيت داغر داغر؟

— أين قالوا لك بأنه موجود؟

— لو قالوا لي لما كنتُ سألت!

— يا أستاذ، يا أستاذ...

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أهذا هو «شارع خليل البدوي»؟

— نعم.

— أين هو معمل الثلج؟

— ليس هناك معمل للثلج.

— بلى، يا سامي، كان هناك معمل للثلج...

— أين كان ذلك، يا والدي؟

— في إمكانك مرافقة الأستاذ إلى «كاراج أرتين»: هو كان «معمل الثلج».

— شكراً على المساعدة. سؤال أخير: لماذا اختفى «معمل الثلج»، يا عم؟

— ألا تعيش في البلد؟

— ...

— ما الحاجة إلى معمل بوجود برادات في البيوت اليوم!؟

— أتعرف داغر داغر؟

— كان من معارفي.

— أتعرف أفراد عائلته؟

— أيُّهم؟

— ما قبل الأخير... هاكَ صورته.

— أعرفه. عرفته بالأحرى. غير أنه لا يعيش هنا منذ سنوات.

— ومن يعيش في البيت العائلي؟

— عائلة أخيه الأكبر.

أنا مشغول، يا ابني، لو تعمل على إيصال الأستاذ إلى بيت العم داغر.

— هذا يتعلق به.

أتريد الذهاب إلى بيته؟

— نعم. لكنني قد أعود إليك.

ألي بمعرفة اسمك؟

— أبو سامي.

أنا مستعد لاستقبالك في أي وقت: داغر صديقي، رحمه الله.

— لن أتأخر، يا والدي. سأقفل الصندوق.

— وماذا سأقول للزبائن؟

— ... كالعادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— هل في إمكاني الدخول؟

— من أنتَ؟

— أتتعرفين إلى من في الصورة؟

— ما له؟ أأصابَه مكروه؟

— لا. إنني بصدد إجراء تحقيق عنه.

— تحقيق!؟ أأنتَ من رجال الأمن؟

— لا.

— ولماذا تُحقق إذن؟

ماذا يعني هذا!؟

— ماما، خففي عنك. تفضلْ، يا أستاذ. أنا ابنة أخيه. اجلسْ، أرجوك.

— شكراً.

— كيف لي أن أساعدك؟

— ما سيجري بيننا يجب أن يبقى قيد الكتمان.

— لا! إنه محقق بوليسي.

لماذا آلة التسجيل؟

— ضرورية لعملي. هكذا أكون أميناً لما يقال، لكم ولي.

— خففي عنك، يا أمي. كيف لي أن أساعدَك؟

— سأتحقق، بداية، من وجود مواد تعريفية به. وسأحتاج منكما إلى بعض الاستيضاحات، عنه وعن العائلة.

— ما المقصود بالمواد التعريفية؟

— تذكرة هوية، شهادات مدرسية، أوراق خاصة، دفاتر وغيرها.

— ليس في عهدتنا أي شيء منها.

— أأنتِ أكيدة؟

— أتُجري تحقيقاً معي؟

— ربما الوالدة تعرف. ربما أخفتْ بعض الأوراق. ألم يكن والدك المتوفى يجمع مثل هذه الأوراق؟

— من قال لكَ إن والدي متوفى، وإنه مهووس توضيب؟

— هذا ما أفادني به قريب لكم.

— من هو؟

— لا يهم.

— أمي: هل جمعَ والدي أوراقاً تخص عمي؟

— لا أعرف... أنتِ تعرفين أني لا أحسن...

— ... حسناً، حسناً. لو تبحثين عن تلك الأوراق، فيما أطرح على ابنتك بعض الأسئلة.

...

— أتعرفين عمك جيداً؟

— عن بعد فقط.

— كيف ذلك؟ أكانا على خصام، والدك وهو؟

— لا أعتقد. عمي كان أقرب إلى المهاجر... كان غائباَ، وإن في البلد... يكبرني بسنوات معدودة... لما دخلتُ إلى المدرسة الابتدائية كان يتابع الدراسة الثانوية، بعيداً عنا.

— وقبل ذلك؟

— لا أعرف. لعله كان في مدرسة داخلية.

— وبعد ذلك؟

— منذ السنة الجامعية الأولى استأجر غرفة، وسكن فيها.

— لا تعرفينه، إذن!

— قليلاً.

— ألا يزوركم؟

— لا، منذ وفاة والدي.

— ألا تذكرين شيئاً عنه؟

— بلى، أذكرُ مشادة حامية بينه وبين والدي.

— ما السبب؟ متى كان ذلك؟

— لما طالبَه والدي بقص شعره الطويل.

— فقط؟

— ولكن بلهجة تهديد.

— أكان شعره مدعاة للتقزز؟

— لا. كانت الموضة، على ما عرفتُ بعد وقت...

لا تنس أن والدي كان أقرب إلى أن يكون والد عمي لفارق العمر بينهما.

— وماذا تعرفين عنه؟

— وصلتْني أخباره وحسب، بفضل جدتي التي ما كان ينقطع عن الاتصال بها.

— وكيف عرفتِ ذلك؟

— كانت تعيش معنا، بل نعيش معهما، هي وجدي.

— تبدين غير مبالية به.

— في كل مرة كان يتصل هاتفياً بالبيت للحديث مع جدتي كان يطرح علي السؤال: مَن على التلفون؟

— أكنتِ تنفرين منه؟

— لا، كنتُ أتشوق لمعرفته، خاصة وأن أهلي كانوا يتناقلون أخباره بلهفة... لعلهم ما كانوا يعرفون عنه الكثير، لكنه كان مدعاة لتقديرهم.

— لماذا؟

— ربما لبعده عنهم، لعدم معرفتهم به.

— أما كنتِ ترينه أبداً؟

— بلى، في بعض المناسبات والأعياد. ما كنت أقترب منه أبداً. كان يمضي الوقت القليل، إما على الشرفة مع جدتي، من دون غيرهما، أو مع جدي ووالدي وأقارب في الصالون.

— ماذا كان يقول؟

— ما كنتُ أفهم أي شيء. حتى جدتي أخبرتني ذات يوم أنها ما عادت تفهم بعض كلماته، لكنها تكتفي بالبريق الذي في عينيه: كان يكفيها، يدلُّها على أن عمي موفق في حياته.

— عفواً، لقد وجدتُ هذه الأوراق. انظري إليها، يا ابنتي، قبل أن يراها الأستاذ.

— أريد أن أقول لكَ أمراً قبل أن يتوقف حديثنا: بلبلتْني هذه المحادثة.

— ماذا أزعجَكِ فيها؟

— لا أعرف. أتساءل فقط: أما كان لعمي في العائلة سر أو أسرار مؤلمة لكي يكون على هذا البعد منا؟

— أنتِ طرحتِ السؤال بنفسك: بماذا تجيبين؟

— لا أعرف. لدي شعور حزين بأن عمي البعيد، عمي الغريب، لن أعرفه أبداً.

— فعلاً؟

— هذا لن يجيب عنه أحد، إلا هو، إن ظهر في حياتنا من جديد.

— أأنتِ بالصدفة هنا؟

— لا، أقيم مع أمي.

— ...

— ... أنا لست متزوجة.

...

— توجد صور فوتوغرافية لعمي، وحده، أو مع العائلة.

— أتعرفتِ عليه؟

— نعم. فهو ما تغير كثيراً، سوى النظارة الطبية بعد وقت، واللحية في وقت لاحق. كما يمكن تخمين أنه هو المقصود في الصور العائلية القديمة.

— كيف ذلك؟

— انه الولد العاشر بالترتيب.

— ألي برؤيتها وتصويرها؟

— كيف؟

— بهذه.

— أباتتْ آلات التصوير صغيرة إلى هذا الحد؟

— ألكِ أن تساعديني في التعريف بها؟

— طبعاً.

هناك عدة صور شمسية له، لبطاقات الهوية كما يبدو، في: ٨ آذار ١٩٦٢، و٤ شباط ١٩٦٧... وهناك صور أخرى: لعمي فيها شاربان ونظارة ولكن من دون تاريخ على قفا الصورة، إلا أنها تعود إلى ما بعد ١٩٦٧ من دون شك.

— وهذه الصور الأخرى، الأقدم؟

— لعل هذا هو عمي، ببنطلونه القصير، ووقفتِه المرتبة، أمام إخوته...

وها هو أيضاً ببدلة رسمية وقميص بيضاء مقرفصاً في حفل خطوبة عمتي الكبرى، من دون شك.

— يضع يده على فمه كما لو أنه يمتنع عن الضحك. أليس كذلك؟

— ربما. إلا أنه يبدو عاقلاً في الصور الأخرى. يبدو منبهراً.

— أبآلة التصوير؟ أم بالمناسبة العائلية؟ أم لأسباب تخصه؟

— أتعرف أن هذه الصور العائلية نادرة؟

— لماذا؟

— لأن العائلة، بأفرادها المختلفين والعديدين، قلما اجتمعتْ، وأمام آلة التصوير.

هذا ما كان يقوله أبي لنا...

— غير أنكِ وضعت أوراقاً عديدة خارج الفرز. لماذا؟

— لأنها «وصايا»، أو «حجج بيع»، أو «شهادات قيد» عقاري، أو «إفادات عقارية»، أو «صك وصية»، أو بطاقات هوية، أو «وثيقة وفاة»...

— ألا ذِكرَ لعمك فيها؟

— بلى. هذا «صك وصية» جدي، الذي يوزع ممتلكاته العقارية على أولاده، بمن فيهم عمي.

— ماذا ورث؟

— القبو تحت بيتنا، وقطعة أرض فوق النبع.

— أكان راضياً عن «القسمة»؟

— هو الذي طالب جدي بالقبو — على ما عرفتُ —، وكان له ما أراد.

— إلا أنها أوراق كثيرة.

— هناك أوراق عديدة تخص جدي وملكيته مع عدد من أخوته.

— وما كانت حصة جدك مع أخوته؟

— يبدو أنه اشترى قطع الأرض المجاورة للبيت العائلي، والقسم العائد إلى أخيه حنا من بيت والدهما.

— لماذا فعل ذلك؟ أفهمتِ ما قام به جدُّك؟

— أراد ونجح في أن يتملك بيت أبيه، وقطعَ الأرض المحيطة به.

— أيكون بذلك قد ملك بيت العائلة؟

— نعم. هذا ما أراده جدي، على الرغم من أنه الصغير بين أخوته.

— وهذا ما فعله عمك بدوره. أليس كذلك؟

— لا. طلبَ عمي من جدي وراثة القسم الأقل نفعاً وقيمةً من تركة جدي.

— كيف ذلك؟

— طلبَ وراثة بيت الجد، الأقدم، غير أنه كان قبواً مهجوراً وخرباً.

— أكان عمك شديد التعلق بجده لكي يطالب بوراثة بيته؟

— ما كان يعرفه... مات قبل ولادته بسنين عديدة.

— ألا تفيدنا الأوراق أكثر من ذلك؟

— يمكن أن تفيدك — إن شئت — في رسم شجرة العائلة، وفي تحديد نسب عمي.

— لا يهمني.

— يمكنك — إذا شئت — استنساخ ما تشاء من الشهادات في محل «النوفوتيه» القريب.

— ألا توجد وثائق أخرى؟

— بلى. هذه «شهادة التعليم المسيحي الابتدائية»، المؤرخة في ٢٨ أيار ١٩٦٢، التي منحه إياها راعي الأبرشية.

— وماذا تعني؟

— لا أعرف شيئاً عنها.

— ألك أن تنصحيني بزيارة معارف له في الشارع؟

— قد تفيدك أمي أكثر مني.

— لا أستجمع ذاكرتي لكي أفيدك، عدا أن الذكريات هذه تعود إلى أيام بعيدة.

— أهناك شيء يثير ذاكرتك حتى اليوم؟

— بلى. هناك أمر يحيرني، ولم ألقَ جواباً عنه من أحد: ما كان سِلْفي يفعله — وهو ولد — عند جارتنا سلمى؟ ما الذي كان يقوده إلى بيتها؟

— ألا تزال حية؟

— نعم، ولكن في حالة مزرية.

— شكراً على ما قمتما به. لماذا زالت الخشية سريعاً من التحقيق؟

— لا أعرف. إلا أن ما تقوله صحيح.

— أتعوضين عن إهمال قديم له؟

— لا، يا أستاذ، هو الذي تأفف من السكن معنا.

— يكفي هذا، يا أستاذ.

لعلك ارتحتَ لما قمتَ به، لا أنا.

سأرافقكَ لتصوير المستندات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— هل في الإمكان رؤية السيدة سلمى؟

— لا، هي مريضة. ماذا تريد؟

— مَن أنتِ بالنسبة إلى السيدة سلمى؟

— أنا ابنتها. وأنت؟

— ألي بتوجيه بعض الأسئلة؟

— عمن؟

— عنه. أتعرفينه؟

— نعم، وأعرف الصورة أيضاً. درسْنا معاً في «مدرسة مار مخايل». ما به؟ تفضل.

— شكراً. أكنت تعرفينه جيداً؟

— كنا في المدرسة نفسها، وإن يكبرني بسنتين. وكان يزورنا أحياناً.

— ماذا يمكن أن تخبريني عنه؟

— زهرة، مَن في الصالون؟

— ...

— زهرة، زهرة، زهرة...

— ماذا تريدين؟

— مَن في الصالون؟

— ...

— أعطني كوب ماء.

— ألي أن أراها؟

— قد لا يكون المنظر مألوفاً.

— ماذا تقصدين؟

— أمي مريضة، ولا تقوى على الحراك من فراشها... كما أنها شديدة السمنة، ولها قياسات غير مألوفة.

— أكانت تعرفه؟

— نعم. لكنني محرجة في اقتيادك إلى غرفتها. سأعود...

...

— يمكنكَ الدخول معي، ولكن لدقائق معدودة.

— شكراً.

— في الأمر ما يصدم، أرجوك...

...

— صباح الخير، سيدة سلمى.

— أهلاً. ماذا تريد؟

— أتعرفينه؟

— لا.

— بلى، أمي. انه ابن عمي داغر. كان يزورنا وكنتِ ترتاحين له. أتذكرين ذلك؟

— أجل، تذكرتُ...

يا له من ولد شيطان!

— لماذا تقولين ذلك؟

— ألكِ أن تعدّي قهوة للأستاذ؟

— حاضر.

— هل في الإمكان إسكات التلفزيون؟

— لا.

— لماذا قلتِ عنه إنه شيطان؟

— كان يزورنا أكثر من مرة في الأسبوع، وكان يلاعبني بالورق.

— أين؟ هنا؟!

— لا، في الصالون... كان في إمكاني في تلك السنوات الجلوس فوق كنبة خاصة.

— أكان لطيفاً إلى هذا الحد معك؟

— كان منظري يثيره، على ما أظن.

— كيف ذلك؟

— تحرجني حكاية ما قاله لي.

— ماذا قال؟

— سألني إن كان صحيحاً ما يقوله البعض عني في مدرستهم.

— وماذا كانوا يقولون؟

— راجت في المدرسة — على ما قالت لي ابنتي — حكاية أنني لا ألبس سروالاً داخلياً.

— ولماذا ذلك؟

— نظراً لحجمي.

— أكان هذا صحيحاً؟

— ...

— أهذا ما سألكِ عنه؟

— نعم. بل وجدتُ عينيه تبرقان، ولسانَه متلعثماً.

— ماذا قلتِ له؟

— أجبتُه بأنني سأجيب ما إذا ربح في لعب الورق.

— أربحَ؟

— نعم.

— وماذا قلتِ له؟

— كان في ودي أن أجيبه، أن أقول له شيئاً لطيفاً، فلا أحد يتحدث عن جسمي إلا في معرض السؤال عن حجمي...

— ...

— ما عاد يحرجني القول، اليوم، كما بالأمس.

— كيف ذلك؟

— زارتْني أمه مرة، وسألتني عن سبب زياراته المتكررة لبيتنا، فأجبتُها بأنه يراقب دروس ابنتي.

— أكان هذا صحيحاً؟

— نعم. كان شاطراً في المدرسة، على ما عرفت. كان يراقب دروسها وألعب معه بالورق أحياناً.

— وبماذا أجبتِه عن سؤاله؟

— أجبتُه بالحقيقة.

— وما كانت؟

— هو عرفَها.

— وماذا كانت؟

— تخصني وتخصه.

— هل توقفتْ أسئلته عند هذا الحد؟

— لا.

— كيف ذلك؟

— سألني ذات يوم سؤالاً غريباً.

— ماذا كان؟

— إنه يحرجني.

— كيف ذلك؟

— السؤال مضحك... إلا إنه يحرج أي امرأة، حتى لو كانت قبيحة أو سمينة.

— وماذا كان؟

— تفضلْ. كيف تشرب القهوة؟ مع سكر أو من دون سكر؟

— شكراً.

— لو تتركيني مع الأستاذ.

— كيف أحرجَك؟

— لا أعرف كيف أستعيد سؤاله... سألني ما إذا كانت النساء تتشابهن في أجسادهن... في أعضائهن. فأجبته بالإيجاب. ثم سألني ما إذا كان — أنا آسفة لقول هذا، لكنك تُشددُ علي الطلب —... سألني ما إذا كان فرج المرأة بالعرض أم بالطول.

— ماذا قلتِ له؟

— أجبتُه بما يناسب.

— هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟

— لا. ربحَ في لعب الورق، كما ربح الرهان.

— وماذا كان؟

— أن يرى...

— هل رأى؟

— ما كان في إمكاني فعلُ ذلك، وإن كنت قد نسيت أعضائي التناسلية منذ زمن بعيد...

— ...

— أنا كنت مجرد امرأة مهملة، مجرد كتلة لحمية، مرمية فوق كنبة.

— ماذا جرى بعد ذلك؟

— انقطعَ عن زيارتنا. لكنه عاد بعد أيام لتدريس ابنتي، كما قال. غير أنني سمعت، بعد دخولهما إلى الغرفة، صراخها، من دون أن تُعلمني بالسبب. فقط قالت لي: «ما عدتُ في حاجة إلى دروسه». وهكذا كان...

— هل انقطعَ تماماً عنكم؟

— نعم.

— من دون أي زيارة أخرى؟

— بلى. زارنا بعد أسابيع، وبدا عليه التوتر الشديد. تلعثمَ ببعض كلمات وخرج.

— وبعد ذلك؟

— اختفى تماماً.

— وفي المدرسة؟

— انقطعَ عنها في السنة التالية، بعد انتسابه إلى مدرسة أخرى، خارج المدينة.

— أهذا آخر الحكاية؟

— لا. كانت تصلني أحياناً بعض أخباره، من دون أن أراه. من دون أن ألعب الورق مع غيره. من دون أن أرى في عيني غيره ذلك البريق، ولا ذلك الارتباك في حركات يديه.

— تبدين حزينة...

— فعلاً. كان لي ربما أن أتركه يرى جسمي...

— ...

— أنا أتبين — إذ أستعيدُ معك تلك الحكاية — أنه كان الرجل الأخير الذي نظر إلي نظرة مختلفة، واشتهى شيئاً في جسدي.

أرجوك. اخرجْ من بيتنا.

— ألي بسؤال أخير؟

— تفضلْ.

— ما القناة التلفزيونية التي تتفرجين عليها؟

— لعلها قناة روسية.

— أتعرفين الروسية؟

— لا.

— لماذا إذن؟

— ألا تراها لغة جميلة؟ هي أجمل من الألمانية، أليس كذلك؟

— ربما. إلا أنك قلما تنظرين إليها، على ما لاحظت.

— غالباً لا أنظر إليها؛ فقط أتسمع.

غالباً لا أستمع إليها؛ فقط أسافر.

مع السلامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— عفواً لإزعاجكَ مرة ثانية، أبو سامي.

— أهلاً بك. أكانوا في البيت؟

— نعم. ألي في طرح عدد من الأسئلة عليك؟

— سامي... أنا مع الأستاذ تحت شجرة الميموزا.

...

— في إمكانكَ أن تشعل آلة التسجيل، إذا شئت... أهي جاهزة؟

— نعم.

— ها أنت تجلس مكانه، على الكرسي عينها... لطالما جلستُ معه تحت هذه الشجرة... سألني عنها في أكثر من مرة: من أين أتيتَ بها؟ أأنت زرعتها؟ ألها ثمار؟ لماذا لا نعرف مثلها في قريتي؟

— أكان مزارعاً؟

— كان مأمور أحراج، على ما عرفتُ منه، قبل نزوله إلى المدينة. لكنه ما كان عارفاً بها...

— ... وأنت؟

— ولا أنا.

— كيف تعارفتما؟

— كان زبون الدكان... بعد أسابيع قليلة على حلوله في الشارع... أظن أنه اختار الشراء من عندي بعد أن تنبه إلى أنني كنت أقرب دكان إلى بيته يملكه غير أرمني...

— أهو حي أرمني؟

— في غالبيته الساحقة.

— ما الذي قاده إليه؟

— لا أعرف... أظنه وجد فرصة للسكن فيه، مثل عائلات أخرى أتت إليه من قرى بعيدة، من الشمال أو الجنوب، أو عائلات كردية...

— حي غريب، على الرغم من وقوعه إلى جانب أحياء «الأشرفية» الراقية!

— لعله بات غريباً بسبب قربه هذا...

لعلهم تجنبوه، بعد أن استوطنتْه عائلات أرمنية انتقلتْ إليه، بعد نزولها الأول في مخيمي «هاجين» و«كمب شرشبوك» القريبين: أتريد رؤية بعض الصور

الفوتوغرافية عن نزوح الأرمن من أطراف السلطنة العثمانية، ومن استانبول؟

— ومن أين حصلتَ عليها؟

— مطبوعة على روزنامة أعلقها في الدكان...

— ألا تجدد الروزنامة سنة بعد سنة؟

— بلى، في البيت. أما في الدكان، فلا. وهو ما نبهتُ إليه المعلم سركيس الذي سألني ذات يوم عن سبب...

— ... سامحني... أكان صديقك؟

— طبعاً. ما كان يمر يوم من دون أن أراه.

— وما سببُ ذلك؟

— كنا من «العرب» القلائل الباقين في الحي.

— ماذا تعني نسبة «العرب» هذه؟

— هكذا كان الأرمن يسموننا... «أولاد عرب»، كانوا يقولون عنا.

— أقرب إلى الشتيمة، إذن.

— لا. كانوا يستعملونها لتمييز أنفسهم، هم كما الأكراد، عنا.

كنا نشعر — أنا مثل صديقي داغر — بأننا الأكثر غربة في الحي.

— لماذا؟

— كانت للأرمني لغته، وكان يحادثنا بلغتنا، وكانت للكردي لغته وكان يحادثنا بلغتنا... كنا نحتاج إليهم، فيما كانوا ينغلقون على أنفسهم، أو يكتفون بما هم عليه.

كنا نُجاورهم، لكننا ما كنا نلتقي بهم إلا لماماً.

— كان لكما أن تتصادقا حكماً.

— المهم أننا تصادقنا.

كان قليل الكلام، على ما لاحظتُ، إلا معي.

كان يسألني عن بعض المأكولات، مثل «المعكرونة» و«البسطرمه» و«المرتديلا» و«الشمانين» و«نيدو» وغيرها، أو عن صور المرشحين للانتخابات النيابية المعلقة على الجدران...

— كنتَ أقرب إلى دليل له، لا إلى صديق.

— كنتُ أصغر منه سناً، ربما بخمس سنوات، إلا أنني كنت أحنو عليه مثل أخي الصغير الذي افتقدتُه بعد سنوات قليلة على ولادته...

كانت تستوقفني فيه دائماً تعابير الشدة على وجهه، فيما لم يكن كذلك عند الكلام معه. كما كانت تستوقفني أيضاً حركة عينيه التي ما كانت تتوقف أبداً...

قلت له ذا يوم: «أتعرف، يا داغر، أنك شبيه القطة؟». «كيف ذلك!»، أجابني غاضباً. فضحكت وقلت له: «لأنك ترصد كل شيء مثلها»...

هذا ما قلتُه له، إلا أنني، في بداية علاقتنا، كنت أشك في أنه مُطارَد... مضت سنوات وسنوات قبل أن أنجح في إقناعه بالجلوس تحت هذه الشجرة...

— وأين كنتما تجلسان؟

— في الخارج، على الرصيف، مقابل الدكان. كانت تناسبني الجلسة لتلبية طلبات الزبائن، إلا أنها ما كانت تناسبني عصبياً.

— كيف ذلك؟ ألا يضع المُطارَد نفسه هكذا قيد المراقبة؟

— ربما لم أحسن التعبير... لم يكن مطارَداً من أحد. كانت الحياة تضغط عليه، على ما أظن... هي التي كانت تلاحقه. ربما كان هو الذي يلاحق الحياة، أو يطاردها.

— أكان يحدثك عن عائلته؟ عن أبنائه؟

— قلما كان يتطرق إلى ذلك... لم يكن قليل الكلام، كما قلتُ، بل كان كتوماً على الأرجح. كان كمن يخفي أسراراً، أو يرتبك بمجرد ظهوره.

— أرى أنك تختار الألفاظ، بل تفتش عنها للحديث عنه، على الرغم من طول علاقتكما.

— هذا صحيح. أجد صعوبة في الكلام عنه.

— لماذا؟

— لأنه كان غامضاً... مرة اختفى، أو لم يظهر، لا في اليوم الثاني، ولا في اليوم الثالث، فانتقلتُ إلى بيته للسؤال عنه. كانت زيارتي الأولى. وجدتُ باب الشقة مفتوحاً؛ لم أدخل، بل ضغطت على الجرس الكهربائي؛ سمعتُه يقول بصوته الأجش: «تفضل».

دخلتُ، وتنحنحت قليلاً للتعرف على وجهة سيري... وإذا به يكرر الدعوة، فتوجهت إلى الغرفة التي كانت إلى جانب الصالون، فوجدته جالساً على طرف كنبة، إلى جانب زوجته المستلقية. كدت أعود على أعقابي، إلا أنه دعاني إلى الجلوس بصوت منكسر: كانت زوجته مريضة منذ عدة أيام، من دون أن يعرفوا سبب مرضها... لم ينهض للسلام؛ حتى أنني تساءلت ما إذا كان جالساً، على طرف الكنبة، منذ عدة أيام، بدليل أنه لم يتحرك لا يمنة ولا يسرة عند الكلام معه... كان أشبه بالمصعوق، مثل زكريا الذي فقد لسانه.

أذكر، عند خروجي من البيت، أنه سألني: «أتعرف طبيباً في الحي؟»، فيما كنت أتساءل ما إذا كان يحبها إلى هذه الدرجة. وما إذا تعطل عن الحركة بمجرد مرضها...

— أزرتَه بعد ذلك؟ أكنت تعرف أولاده؟

— زرته مرة ثانية وأخيرة.

— لماذا؟

— لأنني وجدت صعوبة في القيام بذلك. بل شعرت بامتعاض في الدقائق المعدودة التي أمضيتها في بيته، في الصالون، في زيارتي الثانية.

— ماذا جرى لك؟

— لم أكن في صالون، بل في بهو محطة قطارات.

— كيف ذلك؟

— انتبهت إلى أن باب الشقة كان مفتوحاً هذه المرة أيضاً... «هذه هي عادة العائلة»، قال لي. لكنني أجبته: «يا داغر، الشقق في المدينة تقفل، وليس كما في القرية». لم يعلق على كلامي، بل ضحك بعد دقائق حين بادرته بالكلام: «أليس من الأفضل أن تعرِّفني بأفراد عائلتك دفعة واحدة؟».

— ما الذي جرى؟

— ما كنت أباشر حديثاً معه حتى كان أحدهم — أو إحداهن — يدخل إلى الشقة أو يخرج منها: «هذا ابني ضاهر... هذه ابنتي سامية... كانت هذه سيرين الأرمنية، بنت الجيران...».

— ولماذا شبهتَ الشقة ببهو محطة قطارات؟

— كان يعمل في مصلحة السكك الحديد، فيما كان من الأفضل له أن يعمل في صب المفاتيح...

— وماذا عن ابنه الذي سألتكَ عنه؟

— لا أكاد أعرف شيئاً عنه. عائلته كبيرة، أتعلم ذلك؟

— ألا تذكر شيئاً عنه؟

— لا، بدليل أنني أخطأتُ في التمييز بينه وبين أخيه الصغير أكثر من مرة... ما أعرفه هو أنه ترك الحي بعد سنوات للالتحاق بمدرسة خارج المدينة.

— شكراً.

— أهذا كل شيء؟

— لي أنا أن أطرح السؤال عليك: أهذا كل شيء؟

— في جعبتي أخبار وأخبار، إذا شئت. عن الوالد، لا عن ابنه.

— بلى، لي سؤال أخير: أكان يهوى المسدسات والبنادق؟ أكان في بيته سلاح؟

— هذا السؤال طرحتُه على نفسي بعد نزهتنا المشتركة إلى «مقهى الجمهورية»...

كان ذلك بعد سنوات على إقامته في الحي. سألني ما إذا كان في إمكاني مرافقته إلى «ساحة البرج» للتنزه. راقت لي الفكرة بقدر ما أثارت فضولي: أيريد داغر التنزه فعلاً؟

في وسط البلد، سألني عن «مقهى الجمهورية»، وأنا سألت عنه بدوري، إلى أن أخبرنا أحد العاملين في مقهى آخر، «مقهى لاروندا»، على ما أظن، بأنه أزيل وقام مكانه مبنى لإحدى الشركات، فسأله داغر مستغرباً: «كيف ذلك!؟». فأجابه العامل: «أنا كنت أعمل هناك... أترى إلى مبنى الشرطة ذاك حيث العلم... كان يقع «مقهى الجمهورية» هناك، إلى جانبه». فكان أن استكملَ معه المحاورة: «أتعرف الشيخ أنطون؟

— لا. من هو؟ ماذا كان يعمل؟

— كان تاجراً، ويداوم على المجيء إلى المقهى... كان قصير القامة، ولا يفارقه الشروال ولا العصا ذات القبضة الذهبية.

— بلى، أذكره... كان تاجر حشيشة.

— لا، كان شيخ شباب».

هنا توقفتْ المحادثة بينهما، من دون أن أنجح تماماً في استعادتها.

— أكان يعمل في تجارة الحشيشة بدوره؟ أهذا كان سره الدفين؟

— لا أظن... ربما في السابق، قبل مجيئه إلى المدينة... سألتُه هذا السؤال أكثر من مرة من دون أن أحظى بجواب مقنع. كانت أجوبته متقطعة، كما في تحقيق مع الشرطة: يسعى فيه إلى التخلص من الإجابة، فيما يكون قد استثار شهية المحقق واقعاً.

ما كنتُ أكيداً منه، هو أنه زار «مقهى الجمهورية» لمرة على الأقل... مع الشيخ أنطون، على ما أرجح، إذ اعترفَ أمامي بأن ابن بلدته تاجَرَ بالحشيشة لمرتين أو ثلاث، إلا أنه انقطع عنها بعد اضطراره إلى رمي البضاعة في البحر.

— لماذا؟

— خشيةَ وقوعها بين أيدي الشرطة الفرنسية... كان ذلك في أيام «الانتداب»...

— أكان داغر في عداد المجموعة؟

— سألتُه هذا السؤال، فأنكر ذلك. ولما سألتُه السؤال الآخر: «كيف عرفت بهذا كله؟»، أجابني: «هذا ما رواه لي الشيخ أنطون». «ولماذا رواه لكَ؟»، تابعتُ الاستفسار، فأخبرني بأن الشيخ أنطون دعاه ذات يوم لمرافقته إلى «مقهى الجمهورية»، وأخبره بتفاصيل الواقعة بعد أن تحقق من نشر جريدة «النهار» لصور العلب المعدنية التي كان الشيخ أنطون، هو ورجاله، قد وضبوا فيها كميات الحشيشة، التي كانوا يرسلونها إلى شمال فلسطين... «إنها آخر صفقة حشيشة، يا داغر. لقد تغيرت الأيام».

ما أعرفه، ما أنا أكيد منه، هو أن داغر قلما فارقته تلك النظرات الحذرة التي هي للقطة في مكان غير أليف، ولكن من دون أن تكون له هوايتها بل متعتها في اللعب...

حتى هذا لستُ أكيداً منه.

— ماذا تعني؟

— كانت تصله أحياناً مكالمات هاتفية غريبة.

— كيف ذلك؟

— سألني ذات يوم ما إذا كان في إمكان قريبةٍ له في القرية الاتصال به على هاتف الدكان، عند الضرورة، فأجبتُه بالإيجاب طبعاً. وهكذا كان. كانت مكالمات قصيرة في الغالب، وفي أوقات يكون فيها في الدكان... إلى أن قادتني المناقشة معه، ذات يوم، إلى معرفة أن الطريق الإسفلتية لم تبلغ بعدُ

قريتهم، وأنهم مضطرون، في مطالع كل صيف، إلى التوقف في البوسطة عند نقطة في الطريق، والنزول عبر طريق متعرجة صوب النهر، ومنه إلى بيتهم. فقلتُ له: «هذا أمر غريب! في القرية هاتف، لا طريق إسفلتية!». فأجابني: «أمر غريب فعلاً»؛ إلا أن عينيه كانتا تلمعان بكلام غير الذي تقوله شفتاه. كان ذلك في مطالع الصيف، وانقطعتْ معها تماماً المكالمات الهاتفية. في الشتاء الذي تلا، وبعده أيضاً.

— أهي عشيقته؟

— لا أعرف. الأكيد أنه كانت له حياة سرية.

— ماذا تقصد؟

— اكتشفتُ ذات يوم — وبالصدفة — أنه كان يقوم بأعمال تجارية منذ وقت غير معلوم.

— أي تجارة؟

— تجارة الفحم، والزيت وغيرها. كان يقول لي: «أتسلى في أوقات الفراغ. أنت تعرف أن لا عمل لي في «مصلحة السكك الحديد» سوى انتظار قطارات لا تأتي، فيما خلا «أوتومتريس الشرق» الذي يحط في المحطة يوم السبت فقط من كل أسبوع...».

— لماذا هذه التصرفات الغامضة؟

— أتعْرف أنني طالما تساءلتُ ما إذا كان سيقيم في الحي لوقت محدود، ولن يلبث بعده أن ينتقل، فجأة، إلى حي آخر، أو إلى قريته...

هذا ما قلتُه له، فكان أن أجابني: «من دون شك». «متى؟»، سألتُه، فأجابني: «أعمل على صفقة كبيرة... قد أنتقل بعد الانتهاء منها».

قضى داغر حياته كلها، أي المتبقية، في الحي، وتوفي فيه، من دون أن ينجح في الانتقال منه.

هكذا أمضى حياته: يجلس معك كما لو أنه مغادر للتو.

أتعرف أن هذه هي عادات القطط؟ تنتقل من دون أن تثبت في مكان؛ وتقيم فيه بعينين متأهبتين دوماً، للصيد أو للهرب...

— ... ربما.

شكراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— شكراَ.

لم تترددي أبداً في تبادل بعض المعلومات معي على التلفون، ولا في استقبالي. لماذا؟

— هذا طبيعي. كل ما يفيد أخي لن أتردد في عملانه.

— له الحق، إذن، في أن يعتبرك «الأخت».

— له أخوات غيري.

— لكنك المفضلة بالنسبة إليه. لماذا؟

— مَنْ الأستاذ، أمي؟

— إنه من قبل خالك. هلا تركتنا؟

— أنا في غرفتي.

— أأنتِ التي تكبرينه مباشرة؟

— صحيح. أكبره بسنتين، على ما أظن.

— أتظنين؟

— نعم. ذلك أن تواريخ ولادتنا ليست مضبوطة بدقة في التذاكر.

— وما سببُ ذلك؟

— تأخر والدي، على ما يبدو، في عمليات التسجيل.

أعرفُ أن اثنتين من أخواتي، اللواتي يكبرنني مباشرة، لهما، في تذكرة الهوية، تاريخ الميلاد عينه.

— لطالما ذكرَ أخوك وشدد على أنك كنت «تُمسكين بيده». ماذا تعني لك هذه العبارة؟

— أين وجدتَ هذا؟

— في أوراقه الخاصة.

— لعله أراد منها الإشارة إلى كوني كنتُ أرافقه إلى «مدرسة مار مخايل»، وكنت أمسكه بيده عند عبور الشوارع الحافلة بالسيارات.

— أكانت المدرسة بعيدة عن البيت؟

— نعم. حوالي ثلاث مئة متر.

— إلا أنني عرفت أنه انتسب إلى «مدرسة الخوري». أهي غير هذه؟

— نعم. لم يمض في «مدرسة الخوري» سوى سنة واحدة.

— لماذا؟

— كانت سنة عصيبة. كانت سنته الدراسية الأولى.

— ما الذي أصابه فيها؟

— لم تكن المدرسة تبعد سوى عشرات الأمتار عن البيت. في اليوم الأول لدخوله، أوصلته أمي بنفسها إليها، غير أنه ما لبث أن وصل قبلها إلى البيت.

— ماذا فعل؟

— هرب. ما إن وصلتْ أمي إلى البيت، بعد شراء الخبز، وجدتْه ينتظرها بصراخه العالي: «لن أعود إلى هذه المدرسة أبداً».

— وفي اليوم الثاني؟

— دخل إلى الحمام منذ الصباح، ولم يخرج منه إلا بعد ساعات.

— وبعد؟

— وَبَّخَه والدي في المساء، وأبلغَه أنه إن لم يذهب إلى المدرسة فسيقوده إلى «كاراج بدروس» لتعلم تصليح السيارات.

— وأنتِ؟ ماذا فعلتِ؟

— أخبرتُه أنه سيكون مفيداً له تعلم القراءة والكتابة على الأقل، بدل أن يكون مثل أختي الكبيرة التي اضطرتْ إلى تمضية ساعات وساعات، قبل أيام على زواجها، لتعلم تدوين اسمها.

— لماذا؟

— لأنها كانت أمية تماماً، وملزمة بتوقيع عقد الزواج في الكنيسة.

— هل اقتنعَ بعد ذلك؟

— لا. في المرة التالية أخذه أبي بنفسه إلى المدرسة، غير أن أخي طلب من أمي تدبير كيس له لحملِ تفاحة كبيرة كان قد أتى بها من القرية، ووضعَها على رف عال في غرفتنا. ولما سألتْه أمي عن السبب، أجابها بأن النهار طويل، وأنه سيأكلها في أوقات العطلة.

— حُلت المشكلة، إذن.

— لا، إذ إنه أخبرني، بعد عودته، أنه قضى غالب الوقت في حوش المدرسة، بعد أن أهدى معلمته التفاحة لقاء إبقائه خارج الصف.

— وفي اليوم التالي؟

— أخذ معه كيساً من حبات الجوز، التي كان قد جمعها في القرية بنفسه.

— وبعد ذلك؟

— بعد الأسبوع الأول ناداه الخوري الياس، مدير المدرسة، إلى مكتبه، وأعاد إليه التفاحة وحبات الجوز، وطالبَه بأن لا يكرر المحاولة، لأن أفراد البوليس في «الكركول» المجاور قد يأتون إليه في البيت للتحقيق معه، فالرشاوى ممنوعة في المدرسة.

هذا ما أخبرني به في نهاية النهار، بل سألني: «ماذا تعني الرشاوى؟»، فأخبرتُه.

— هل انتظمت الدراسة بعد ذلك؟

— انتظمَ ذهابُه إلى المدرسة، لا دراسته. كانت الساعات التي يمضيها في المدرسة مؤلمة، بل مخيفة: كان يُسر لي مساء بكل ما يصيبه في النهار.

— مثل ماذا؟

— مثل منظر «الفلق» الذي لحق بأحد الطلاب.

— ما «الفلق»؟

— كان يتم تركيع الطالب على المقعد الخشبي، بعد نزعِ حذائه وجواربه، ثم ضربُه بمسطرة المعلمة الطويلة عدداً محدداً من الضرباتِ على باطن قدميه العاريتين.

— أأخافَه هذا كثيراً؟

— طبعاً، غير أن أمراً أقلقه أكثر من الضرب.

— ماذا كان؟

— أن تُنزعُ جواربه وتكون مثقوبة!

— أأصابه «الفلق»؟

— لا. غير أنه وقع مريضاً بعد أسابيع، من دون أن نفهم سبب ذلك. ثم انقطع عن الكلام تماماً.

— كيف ذلك؟

— ما إن كان يشرع في الكلام حتى يتقيأ، ويبدو الذعر على وجهه.

— أما أخبرَك بما كان يشعر به؟

— بلى، لكنه — كما قلتُ — كان يتقيأ بمجرد أن يشرع في الكلام، معي أو مع غيري. ومع ذلك كان يدعوني، أمي أو أنا، إلى البقاء إلى جانبه، إلى الإمساك بيده اليسرى.

الطبيب لم يفهم حقيقة ما يجري، أما مدير المدرسة فقد أخبر أمي — حين ذهبتْ إليه لإبلاغه بمرض أخي — بأنه سيزورنا في البيت. هذا ما عرفتُه بعد مجيئي من المدرسة، إذ وجدتُ الخوري في الصالون مع والدي، وأحدَ الطلبة مع أخي في الغرفة. كان أخي مرتاحاً في سريره، على ما بدا لي، وكان رفيق صفه يملي عليه، بل يشرح له بعض الدروس التي فاتته. وعند سؤال أمي عن الخبر أعلمتني بأن الطالب هذا قد يكون سبب المشكلة التي حلت بأخي، إذ إنه تعرض لعارض صحي في الصف، فكان أن تقيأ فوق المقعد دوداً أبيض بأعداد كبيرة، ما سبَّبَ الرعب لطلاب الصف.

— هل استعاد الكلام بعد هذه الزيارة؟

— لا. في الليلة التالية استيقظتْ أمي، التي كانت تحرسه ليلاً، على صوته وهو يردد كلاماً غريباً. أيقظتني وقالت لي: «أخوك يقول كلاماً غريباً. لعله أصيب بنوبة جنون، أو بارتفاع شديد في حرارته». لم أتمالك نفسي عن الضحك إذ سمعتُه يردد، مثل الطالب الرصين في حضرة معلمته، حروف الأبجدية الفرنسية، وبصوت عال ومنتظم.

— أهكذا سُوِّيت المشكلة؟

— نعم. عاد إلى المدرسة، ولكن بشرط تحويله في السنة التالية إلى مدرستي، «مدرسة مار مخايل». وهكذا كان.

—

— استعادَه، ولكن بقلة بادية.

أظنه حتى اليوم يجد صعوبة في التكلم.

— هل ارتاحَ في المدرسة الثانية؟

— كان يشعر بأمان إلى جانبي. كان علينا أن نجتاز مسافة قبل وصولنا إلى المدرسة. وكانت تبدو عليه الخشية في طريقنا، بعينيه اليقظتين، الحذرتين: كما لو أنه يخشى دائماً مداهمة خطر وشيك.

مضت سِنتان على ذلك قبل أن يستقل بيده في المشي، وينفصل عن يدي.

— شكراَ.

— ألي بسؤال؟

— تفضلي.

— أهو كتب فعلاً أنني كنت «أُمسك بيده»؟

— فعلاً. لماذا تسألين؟

— أستراه قريباً؟

— نعم. لماذا؟

— هل لي بإرسال هدية له؟

— أهي خفيفة؟

— للغاية. سآتي بها...

— أأنتِ حُكْتِها؟

— لا، هي من عمل الوالدة.

كان يجلس طويلاً، على مسافة منها، ليتأمل حركة أصابعها وهي «تكتب بصنارتين»، كما كان يحب أن يقول لها.

— أتعرفين أنه، هو بدوره، يكتب بصنارتين؟

— كيف ذلك؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لماذا اخترتَ هذا المكان الساحر للقائنا؟

— لأن صديقي اختاره غير مرة للقائي به.

— متى كان ذلك؟ ألمّا كنتما في الثانوية؟

— اكتشفَ صديقي هذه «الاستراحة» أثناء الدراسة، لكنه راح يصر على لقائنا بها بعد أن ترك المدينة.

— لماذا؟ ألكما فيها ذكريات شخصية؟

— أنا أعيش في المدينة، كما تعلم؛ وإذا ما رغبتُ في مكان خصوصي أو حميمي — وهذا ما حصل لي — فإنني أبتعد عنها إلى غيرها. أتفهمني؟

— وماذا كان يعجبه في المكان؟

— سألتُه السؤال عينه مرة، بعد عودتي من فرنسا، فأجابني: «يروق لي الجلوس إلى جانب هذه القلعة البحرية، أمام هذا المدى المفتوح».

— أكان يحلم بالسفر مثلك؟

— لا. كان يحلم دوماً بفضاء واسع، لا أن يكون في مكان محصور، ضيق. حتى في أيام الثانوية كان يحبذ جلوسنا على تلة عالية مشرفة على المدينة.

— أهو هذا الذي في هذه الصورة؟

— تماماً. لعلها صورته المناسبة لتقديم شهادة «البكالوريا»: كان له هذان الشاربان الخفيفان، وهذه النظارة الشبيهة بقعر زجاجة «البيرة».

— ماذا يعني هذا؟

— هكذا كنا نشبِّه نظارته الطبية السميكة.

— أما كان يضايقه الأمر؟

— لا، خاصة أن ماهر، أخي، هو الذي أطلقَ هذا التشبيه... كان التشبيه جاهزاً، إذ كنا نحتسي «البيرة».

— كانت حياة ماجنة لطلاب، على ما أرى.

— كنا نتعلم في الشارع أكثر من المدرسة.

— كيف تعارفتما؟

— التقينا في الصف. تبادلنا بضع كلمات بمجرد خروجنا إلى حوش المدرسة.

كان فضولياً، وكنت كذلك. انتبهتُ في الصف إلى أن لكنته تختلف تماماً عن لكنة أهل مدينتنا.

كنا نأتي من عالمَين مختلفين. كان في جعبة كل منا ما يدهش الآخر، ما ينقله إلى رحلة أكيدة، وكان له ما يرويه له.

— ألهذه الدرجة؟

— طبعاً. ما كنا ننقطع عن سؤال بعضنا عن هذا الشيء أو ذاك، عن هذا الاسم أو ذاك.

كان لي أن أكون له أشبه بالدليل في رحلة، في هذه المدينة التي ما كان يعرفها إلا في الكتب المدرسية. وكان له أن يبدي دهشته من هذا الأمر أو ذاك، لدرجة أنه انقطع عن الكلام بعض الوقت.

— هذه عادة قديمة لديه.

— ما كنتُ أعرف ذلك.

في مرة — وكان يزور بيتنا للمرة الأولى ربما — سألني: «ما هذه الرائحة؟»، فأجبتُه: «رائحة الهال». «ما الهال؟»، سألني...

وفي مرة أخرى، استوقفَه في بيت صديقنا محمد، في الغازية، أنهم يوزعون على زوارهم الشاي في الصالون: «ما الغرابة في ذلك؟»، سألتُه، فأجابني: «نحن نشرب الشاي في الصباح، في فناجين كبيرة، لا صغيرة كهذه؛ كما نشربه في حال المرض».

— أنشرب «البيرة»؟

— لم يعد ممكناً شربُها في هذه الأمكنة. أنا آسف.

— ألا زلت تشربها؟

— نعم. ولكن في البيت، وحدي، أو في مطاعم بعيدة.

— لعلي أحرجتُك بكلامي هذا؟

— لا، الأيام هي التي تحرجني.

— ماذا لو نشرب القهوة بالهال؟

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— وكيف كانت دراستكما؟

— لا أذكر الشيء الكثير عنها، بل عما أحاط بها.

— أكنتما ناجحَين أم فاشلين في الدراسة؟

— لا، كنا ناجحين.

أنا الذي أبلغتُه عن نجاحنا في شهادة «البكالوريا»، ثم في شهادة «الفلسفة».

— كيف ذلك؟

— كان يعود إلى بيت أهله بعد انقضاء الامتحانات، وكانت تصلنا النتائج، قبل نشرها في الجريدة، من مدير الثانوية.

— ولكن ما الذي قاده إلى هذه الثانوية؟

— كانت مدرسة رسمية، إلا أنها كانت ذات مستوى جيد، بفضل سهر مديرها عليها، حتى أن الناس راحوا يسمونها باسمه: «ثانوية الزعتري».

— ألهذا انتسبَ إليها؟

— لا. هذا ما أخفاه في البداية... ثم أخبرني بأن أخته الكبيرة، التي كانت تسكن في بلدة البرامية القريبة، توفي زوجها العسكري في حادث سير مروع، فكان أن طلب منه والده السكن معها، ومع أطفالها الثلاثة.

— دائمَ التنقل، على عادته! في خدمة العائلة دائماً!

— ماذا يعني كلامك هذا؟

— لا شيء. كنت أكرر كلاماً قديماً.

قلْ لي، أتعرف حسانة المجذوب؟

— نعم.

— أفي حوزتك رقم هاتفها؟

— نعم. لماذا؟

— لي أن أراها للغرض عينه.

— ولكن ما علاقتها به؟ أكانت له علاقة بها من دون أن أدري؟

— ربما.

— هذا رقم مكتبها. أشكُّ في أنك ستتوصل إلى رؤيتها.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— عفواً على إيقاف الحديث؛ كان عليَّ تنظيم نهاري ومواعيدي.

— أقَبِلتْ؟

— نعم، وبسرعة. سألقاها بعد الظهر. هنا أيضاً.

لنعدْ إلى ما كنا نتكلم عنه: كان غريباً في هذا المناخ.

— طبعاً. إلا أنه كان سريع الانغماس في ما كان لا يعرفه.

أيضايقك أن نتمشى؟

— لا، ولكن بشرط: أن تضع آلة التسجيل في جيب سترتك الخارجي.

— موافق. أسَتَعْمل؟

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لماذا اخترتَ المجيء بي إلى هذه الحارات؟

— كانت تروق له رؤية هذه الطرق الداخلية الملتوية. كان يحلو له الضياع فيها، وهو ما كان يزعجني تماماً.

— لماذا؟

— لأنني كنت أعرفها عن ظهر قلب. كنا نمشي فيها بطريقتين مختلفتين: أنا خفيض الرأس، وهو بعيني بصاص، لدرجة أن الإسكافي، العم مصطفى — الذي كان يحلو له العمل أمام دكانه — سأل أبي: «أهو أجنبي، الولد الذي يأتي به مأمون إلى السوق القديم؟». ضحك يومها والدي، وسأل العم مصطفى: «لماذا تسأل هذا السؤال؟»، فأجابه متسائلاً: «ألا يكون طالباً في مدرسة الأميركان؟»، فضحك والدي من جديد.

لم يكن في السوق ما يثير فضولي. كنت أفضل التمشي و«البصبصة» على الطالبات، في «دار المعلمين»، أو في «ثانوية الخطيب» للبنات.

— أما كان يرغب في ذلك بدوره؟

— بلى. هذا ما قمنا به مرات ومرات.

— والحاصل؟

— بضع نظرات ومواعيد مؤجلة.

أتريد أن نجلس في هذا المقهى؟

— المنظر جميل ومؤثر. أكان يروق له الجلوس مع الصيادين؟

— راقت له ليالي رمضان في هذا الحي. كنا ندور وندور فيه من دون أن نبحث عن شيء، أو أن نجده... كان يعاين ويراقب ويفحص كما لو أنه في المختبر الكيميائي في الثانوية.

أتحدَّثُ عن ليال فيه، بل عن ليلة بعينها أمضيناها بكاملها في الحي حتى «السحور».

— وكيف كانت؟

— مثيرة، حتى لي. اكتشفتُ عالماً مختلفاً. حياة ليلية ونهارية في الوقت عينه. كانت المحلات مفتوحة على عادتها. حتى السينما كانت تنتظر زوارها، هنا.

درنا ودرنا حتى الضجر، بدليل أننا ذهبنا إلى الحلاق لقص شعرنا.

— أين السينما هذه؟

— هنا، حيث نقف.

— هنا!؟

— هذه الكراسي كان يتم توزيعها على المتفرجين...

— ... والشاشة؟

— على هذا الجدار...

— ... والمقهى؟

— ما كان الصيادون يأبهون لما يجري؛ كانوا يديرون له ظهورهم، إذا جاز القول... بعض أطفالهم كانوا يأتون لرؤية الأفلام... كانت للصيادين مواعيد أخرى.

— متى؟

— في غير أيام رمضان.

— كيف ذلك؟

— في ليال خاصة يتدبرون فيها أفلاماً جنسية.

— هنا! وفي هذه المدينة!

— هذا ما أخبرني به ابن العم مصطفى.

— ومن أين كانوا يأتون بها؟

— لم تكن أفلاماً، على ما أظن. لعلها كانت «قطشات»، أي مقاطع قصيرة.

— ومن أين عرفتَ ذلك؟ أعرفتَها بدورك؟

— نعم. هذا ما أخبرنا به صديقنا عادل.

ذهبنا بأنفسنا، نحن الثلاثة، إلى «سينما سلوى» في منطقة «المزرعة»، في العاصمة، لرؤيتها.

— وكيف كان ذلك؟

— كانت السينما تعرض فيلماً لماشيستي، على ما أذكر. أخبرنا عادل بأن العرض في الداخل سيكون مختلفاً. دخلنا إلى الصالة، ولكن من دون أي مشهد إثارة. بدأنا بالتذمر، راح عادل يصرخ: «بدنا قطشة. بدنا قطشة. بدنا قطشة...». وما إن توقف، تبعَه صراخ آخر، من جهة أخرى في الصالة، من دون «قطشة» تذكر. ولما عاود عادل الصراخ، اقترب منه أحدهم، وأخبره بأن الوقت غير مناسب لمثل هذه العروض في هذه الحفلة، بل في الحفلة الأخيرة، أي في التاسعة مساء. فكان أن بادرتُه بالسؤال: «ألا توجد «قطشات» في هذا الوقت، في صالة أخرى؟». فاقتربَ منا أكثر في العتمة، وأسرَّ لعادل ببضع كلمات.

— وماذا فعلتم؟

— خرجنا مع عادل، واتجهنا إلى «ساحة البرج». كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة صباحاً. تساءلتُ ما إذا كان في الإمكان الدخول بعد بداية الحفلة. لم يعلقْ بائع التذاكر على سؤالي، الذي كنت أوجهه لعادل، بل دفع صوبنا بالبطاقات الثلاث، وأتبعَها بالقول: «يمكنكم الدخول والخروج في أي وقت».

لم يكن الدخول إلى الصالة بالمريح. استقبلتْنا روائح غريبة، تبينتُ فيها رائحة دخان. كان الفيلم هندياً، على ما أظن. ما كنا قد جلسنا بعد، حتى علا عادل بصوته، على طريقته: «بدنا قطشة. بدنا قطشة. بدنا قطشة...». توقف العرض للحظات، ثم بدأ عرض آخر: رجلان وامرأة، في غرفة ضيقة، فوق فراش، في وضعيات جنسية سافرة. ثم علت همهمات وتأوهات خفيفة، لدرجة أنني صرت أخشى عاقبة ما كان يحدث. كنت أرى ما لم أكن أراه حتى في أحلامي، أثناء المرض في فراشي. يكفي، أليس كذلك؟

— أفي الأمر ما يحرجك؟

— لا. عادل هو الذي أحرجني.

— ماذا جرى؟

— تنبهت إلى أن عادل شرع — وكان إلى جانبي من الجهة اليسرى — في ممارسة العادة السرية تحت بنطلونه، ثم أخرجَه... دعوتُه إلى الانتقال إلى مكان آخر. ففعل.

— ثم؟

— زادت الهمهمات، بل التأوهات، حتى أنني خلت نفسي، مع رفاقي، في جوق ما لبثْ أن اتسقت أصواته. فكان أن خرجنا من الصالة من دون عادل، وإذا بنا نلقى على الدرج النازل صوب الصالة رجلاً يحمل بيده سطلين مليئين بالماء. فعدنا أدراجنا، وانتظرنا... ما إن انقطعت التأوهات، بل التفجرات الصوتية، دخل العامل إلى الصالة صارخاً: «ماء، يا شباب». وإذا به ينتقل إلى مؤخرة الصالة، ويرمي بمحتوى السطلين على البلاط، بعد أن رفع الجالسون أقدامهم بانضباط شديد.

— أكان الوقت صيفاً؟

— لا، أبداً.

أنجلس قليلاً؟

— إن شئت. هل أزعجك الأمر؟

— أي أمر؟

— رواية ما جرى.

— لا، بل ما جرى. ضايقتني الحادثة عند حصولها، لا بعدها. صارت حكاية نتباهى بها أمام رفاقنا. ماذا تشرب؟

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لماذا هذا المطعم، لا الثانوية؟

— ألا تكفيكَ رؤيتها؟ ها هي أمامك.

— ما يهمني هو ما لك أن تقوله لي. أعرف أن للأمكنة معك ما يسهِّل الكلام عنها. لماذا هذا المطعم؟ أهو مطعم فعلاً؟

— هو مقهى ومطعم وقاعة انتظار، تبعاً لطلبات الزبائن.

— أكنتم في عداد زبائنه؟

— كنا من زبائنه الأولين.

— لأي سبب كنتم تلتقون فيه؟

— لأكثر من سبب: لأكل صحن فول، للعب الورق، لإعداد الإضرابات...

— هذا برنامج سرد منسق.

— كنا نقيم فيه أحياناً أكثر من الصف. قضينا فيه أياماً بكاملها، ولكن بما لا يتعدى الدوام المدرسي.

— كيف ذلك؟

— حصلت في العام ١٩٦٩ إضرابات عديدة، لدعم «المقاومة»، ل«تحصين القرى الأمامية»...

عليكَ ألا تنسى أن حائط الحوش المدرسي يفضي إلى حائط «مخيم عين الحلوة». كنا في إضرابات لسبب أو من دون سبب. توصلنا، ذات يوم، إلى إعلان إضراب من دون مطالب، من دون أن تعلن أي جهة مسؤوليتها عنه.

— كيف ذلك؟

— وصلنا، هو وأنا وأصدقاء آخرون، إلى المطعم قبل الثامنة صباحاً، على عادتنا. وكان محمد وسامي، الثنائي في اللعب، ينتظراننا، كما لو أنهما ناما في المطعم بعد هزائم الأمس المتتالية فوق طاولة اللعب. لم يكن في إمكاننا، هو وأنا، التملص من المعركة. قبلنا التحدي من جديد، بل وجد صديقي العذر المناسب للبقاء خارج الصف.

سارعَ صديقي، بل شريكي، إلى مدخل الثانوية الرئيسي، وأفاد سيارات أجرة كانت تقل تلاميذ من القرى والأحياء المجاورة، عن حصول إضراب. فعادت غير سيارة أدراجها من جديد. وهو ما جعل آخرين يقفون أمام البوابة، التي لا تفتح إلا قبل عشر دقائق من موعد الصفوف، متسائلين ومرددين خبر الإضراب. وأمام سريان الشائعة بين صفوف المتجمعين، المتزايدين، لم يقدم العم إبراهيم، البواب، على فتح البوابة...

يومها راقبْنا تفاصيل المشهد من نوافذ المطعم، فيما لم يتساءل أحد عن سبب الإضراب.

— مناخات سياسية مشحونة، إذن.

— نعم. وكنا بدورنا مشحونين.

— أكان شريكك في اللعب شريكك في السياسة؟

— تشاركنا في السياسة، من دون أن تحظى السياسة منا إلا بقليل الكلام.

— أكان مسيساً؟

— لا، لكنه كان يمينياً.

— كيف ذلك!؟ ألم يكن يسارياً؟

— كيف لا، وقد نجح بعد أسابيع أو شهور قليلة من انتسابه إلى الثانوية — لا أذكر تماماً — في إعلان إضراب، في جرِّنا إلى إضراب ضد محاولة اغتيال الرئيس السابق كميل شمعون.

— وما الغرابة في ذلك؟

— كنا، ماهر وأنا، متأثرين بمواقف أخي الكبير ناصر الذي كان ينتسب إلى «حركة القوميين»؛ وكان شمعون — كما تعلم — خصم الحركة الأبرز، ولا سيما في سنوات ولايته الرئاسية.

— كيف نجح في ذلك؟

— أتساءل حتى اليوم: كيف أقدمَ على ذلك، وفي مدينتنا التي تُعرف بميولها الناصرية حتى أيامنا هذه!؟

لعله أقدمَ على ذلك من باب الجهل والتهور، ولما كان فعلَه في السنة التالية، من دون شك.

لعله كان محمولاً على أن يكون معارضاً من دون أن يدري.

قلتُ له في السنة الثالثة والأخيرة في دراستنا: «أتعلم، يا صديقي، أنك كنت يمينياً بشكل يساري متطرف؟».

— ولكن كيف انقدتم إلى الإضراب؟

— لا أعرف. خرجنا من الصف إثر كلمات معدودة منه عن لزوم التنديد بأي اغتيال، من باب الحرص على الديموقراطية.

لعلنا، منذ ذلك اليوم، كنا نتدبر أسباباً — يمينية أو يسارية — للخروج من الصف، للبقاء في الشارع، في المطعم، في السينما وغيرها.

— هذا برنامج عمل.

— هذا ما أتحقق من حصوله إذ أراجع تلك السنوات العامرة بالحيوية.

— أشاركَ في تظاهرات؟

— نعم، خاصة بعد تظاهرة ٢٣ نيسان ١٩٦٩، التي شارك فيها رغماً عنه.

— كيف ذلك؟

— عفواً. النادل ينتظرنا منذ وقت، ونحن لاهون عنه. ماذا تشرب؟

— لو نتمشى في الثانوية. أهذا ممكن الآن؟

— مِمكن.

عفواً، سنعود بعد قليل.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ألا تزال على حالها؟

— نعم.

— أين كان صفكم؟

— تبدلَ بين الطابق الأرضي، في الجهة اللصيقة بالمخيم، وبين الطابق الثاني والطابق الرابع في هذا البناء الذي أمامنا، في السنتين التاليتين.

— تكلمتَ عن حوش، ولا أرى شجرة في المدرسة!

لنعدْ إلى تظاهرة العام ١٩٦٩: لماذا شاركتما فيها؟

— لم أشارك فيها. أبلغنا والدي، أنا وماهر، — وهو مدير مدرسة ابتدائية —، عن خشية أكيدة من حصول صدامات عنيفة بين المتظاهرين والجيش، بل أمرَنا بعدم مغادرة البيت.

لم أنجح في إبلاغ صديقي بهذا كله. أتى إلى الثانوية على عادته، وكان يرتدي لباس «الكاكي»، في هذا اليوم الذي تُخصص بعض ساعاته لتربيتنا الرياضية، التي كانت تشكل تمارينا في «الخدمة العسكرية» الإجبارية.

— وكيف شارك في التظاهرة؟

— لم يشارك فيها واقعاً. فقد وصل يومها إلى المطعم، هو وقلة من رفاقنا ممن يأتون من بلدات بعيدة، مثل عادل من «المعمرية»، ومحمد من «الغازية»، وبربر من وادي الزينة... بوابة الثانوية ظلت مقفلة، فيما كانت السيارات تصل وتقفل عائدة.

— وكيف عرفت بهذا كله؟

— هذا ما أخبرنا به بعد وصوله إلى بيتنا مشياً.

— لماذا؟

— لما تحقق من حقيقة الإضراب، وانقطاع سيارات الأجرة من المحلة، وانصراف عادل ومحمد، كل في سيارته، إلى بلدته الواقعة جنوباً، لم يجد ما يفعله سوى الانتظار. هذا ما نصحه به صاحب المطعم، خاصة بعد انتباههما إلى تجمع المتظاهرين على مقربة من مدخل المخيم.

كانت تجربة مثيرة له، إذ انتبهَ، بعد دقائق قليلة على انطلاق التظاهرة، في التاسعة والنصف صباحاً، إلى لعلعة الرصاص في شوارع قريبة. وما لبث بعض المتظاهرين أن عادوا أدراجهم، واحتمى بعضهم في المطعم، وأخبروهم بحقيقة ما جرى: ما إن ظهر رأس المتظاهرين في الشارع الطويل، الذي تفضي نهايته إلى شارع طويل آخر مؤد إلى ساحة المدينة، حتى علا مكبر للصوت، من على مدرسة تمركزت فيها قوات الجيش في نهاية الشارع الطويل، داعياً المتظاهرين إلى التراجع والعودة من حيث أتوا: لم يمتثل المتظاهرون للأمر، فانهمر الرصاص عليهم.

بعد أكثر من نصف ساعة على توقف الرصاص، اضطر صديقي إلى سلوك الطريق عينها، بعد أن رفع ورقة بيضاء في يده، في إشارة إلى سلوك «سلمي» في ما يقدم عليه.

هذا ما أخبرني به بعد وصوله إلى بيتنا، القريب من ساحة المدينة، حيث كان له أن يستقل سيارة أجرة — في حال توافرها — للوصول إلى البرامية. تطلب منه الأمر السير وحيداً في شوارع مقفرة، بل تنبه إلى آثار دماء في الشارع الطويل... ولقد استفاد — لما أوقفه حاجز الجيش — من ثيابه «الكاكي» التي كانت تشير إلى تدريباته العسكرية في الثانوية.

كان مخطوف الوجه، لما وصل إلى بيتنا. أخي ماهر قال له: «إنها معمودية الدم». لم يجب، بل قال بعد تردد: «أحتاجُ لبعض الوقت، من دون شك، لكي أتحقق من هول هذه الساعات الثلاث في حياتي، ولكي أستعيد ببطء فظيع تلك الدقائق الطويلة التي قضيتُها في عبور الشارعين. إنها أطول طريق في حياتي، ولا أعلم، اليوم، إلى أين ستؤدي بي لاحقاً، بعد نجاتي».

لم يمض سوى دقائق معدودة في البيت، وأصر والدي على أن يقتاده بنفسه في سيارته «البيجو» إلى البرامية، من دون أن يسمح لنا بمرافقته.

— أكان لهذه التظاهرة دور مؤثر عليه؟

— نعم. هذا ما تنبهتُ إليه بعد أسابيع، حيث باتت قناعاته السياسية أشد مما كانت عليه.

أعتقد أن لهذه التظاهرة الدور الأكبر في تحديد هويته السياسية القادمة.

— عفواً... لماذا تقودني إلى هذه الغرف، وهي مقفرة!؟

— أردتُ إيصالك إلى الطابق العلوي، الأخير من هذا المبنى.

— لماذا؟

— لا أعرف إن كانت هناك حكمة في توزيع غرف الصفوف. فما كنا نرتقي صفاً حتى كنا نرتقي طابقاً.

أمضينا سنتنا الأخيرة في هذا الطابق. إلا أن الارتفاع إلى هذا الطابق عنى شيئاً آخر لنا، صديقي وأنا.

— ماذا عنى؟

— عنى انفصالاً عن حياة المطعم وانغماساً أشد في ما يحيط بنا.

— إلى ماذا تريد أن تشير؟ «أتخرجتما» من المطعم قبل تخرجكما من الثانوية؟

— هذا لا يخصنا جميعاً، بل صديقي وأنا. بل أعترفُ أنه كان له الدور الأساسي في تغيير وجهتنا.

— كيف ذلك؟

— كنا نلعب الورق في فترة الظهر، كعادتنا في المطعم، لما توقف صديقي عن الالتحاق بنا... لم نعلق على الأمر لوجود لاعبين آخرين. في اليوم التالي لم نبصره في المطعم بتاتاً. ولا في اليوم الثالث... وعند سؤالي له، أجابني بأنه ما عاد يطيق هذه الجلسات. بعد أيام أخرى، سألني: «أفي الإمكان المجيء بسيارة أبيك عند الغروب في نزهة؟». ولما سألته عن السبب، أخبرني بعد تردد خفيف أنه واعد إحداهن على اللقاء بها. «من هي؟ أين ستراها؟»، سألته مندهشاً. فأخبرني بأن عليّ الانتظار ظهراً في هذا الصف، على أن أبقى فيه، وأن أعلو بجسمي فوق أحد الكراسي، للارتفاع إلى زجاج الصف العالي، لرؤية ما يجري في الخارج... وهكذا كان.

بعد انتهاء الصف، وتفرقِ الطلاب، بقي صديقي في الخارج، مستنداً إلى الإفريز الباطوني. دعاني على عجل إلى عدم البقاء إلى جانبه، والدخول من جديد إلى الصف. هذا ما فعلت. رحت أنقل نظري من دون أن أعرف المقصود من مراقبتي، وإذا بي أنتبه إلى أن صديقي شرع في إرسال بعض الحركات إلى جهةٍ أمامه: حركات تشبه عمل الموظفين في المطارات، عندما يقومون بتوجيه سيرِ قبطان الطائرة في أمتاره الأخيرة فوق المدرج، قبل التوقف النهائي. راح يعلو بيديه، أو يفتحهما، أشبه بقائد جوق، من دون أن أرى أي عازف... وذلك إلى أن انتبهت إلى وجود سيدة في حديقة البيت الأرضي اللصيق بالمطعم. كانت تنقاد — وهي جالسة على كرسيها — إلى ما يطلبه منها: يشير إليها بالرفع فترفع تنورتها تدريجياً عن ساقيها المكتنزتين، أو بالفتح فتفرج عن فخذيها؛ إلا أنها ما كانت تعمد إلى فتح قميصها، حين يطلب منها ذلك، بل كانت تهز صدرها وحسب، في حركات خفيفة، مثل راقصة

شرقية قيد التدريب. دام العرض بضع دقائق، إذ انصرفتْ من بعده إلى الداخل. انتظرَ صديقي مثلما انتظرتُ، من دون جدوى، من دون أن تظهر من جديد.

أمضينا، يومها، بقية فترة الظهر في التمشي، في الصعود إلى التلة المشرفة على الثانوية. ولما اقتعدْنا العشب، كعادتنا، بمحاذاة الكنيسة البروتستنتية، أخبرني صديقي بحكايته مع السمينة، جارتنا: «أتتذكر النهار الذي انقطعتُ فيه عن اللعب في المطعم؟ في ذلك اليوم انتبهت إلى وجود صديقنا بربر في المكان الذي كنا فيه قبل دقائق، وهو يرسل إشارات غريبة. هذا ما لاحظتُه قبل أيام على ذلك، وتابعتُه يوماً بعد يوم. سألتُ بربر عن سبب ذلك، بعد عودتنا إلى الصف، فأنكر ذلك. فكان أن صعدتُ إلى الطابق، وإذا بي أتحقق من امتثال جارتنا لأوامره... وما إن شعر بوجودي حتى انقطع عن ذلك، وهرول على الدرج. فوقفت مكانه، ورحت أرسل بدوري إشارات، فإذا بالسمينة تنفذ توجيهاتي بدوري».

— لا داعي لهذا كله. ماذا حصل بعد ذلك؟

— لم تمتنع السمينة عن تلبية طلباتنا، صديقي وأنا، بعد أن باغتُّه وباغتَّها وخرجتُ من الصف ووقفتُ إلى جانبه أشاركه في توجيه الإشارات.

اختفى بربر تماماً، حتى أنه بات يتجنبنا. لكن حالتنا ما عادت تطاق... إلى أن دعوتُها إلى الخروج من الحديقة لمكالمتنا، فأخبرني صديقي بأنه فعل ذلك سابقاً، وأنها طلبت منه المجيء بسيارة للخروج معنا. فأشرتُ إليها إلى أننا سنأتي في السيارة يوم غد، في الخامسة بعد الظهر.

— ماذا جرى؟

— كانت الثانوية قد أقفلت أبوابها، فلم نحسن الصعود لمخاطبتها. انتظرنا في السيارة، فكان يخرج صديقي للتنزه أمام بيتها، أو أنا، من دون جدوى، من دون أن تخرج بتنورتها المزركشة من البوابة الحديدية، ومن دون أن نراها بسبب سور الحديقة العالي.

في اليوم التالي، قبلتْ بالخروج لمخاطبتنا، واعتذرتْ بأنها لم تكن تستطيع الخروج من البيت بسبب عودته المفاجئة، وأنها ستلقانا في الساعة نفسها، في بداية الأسبوع.

— بسبب عودة من؟

— لم نعرف أبداً: أكان والدها؟ أكان زوجها؟ أكان مستخدمها؟...

ما أتيح لنا أبداَ رؤية أحد غيرها في ذلك البيت. كان يوحي — بمجرد أنه منفرد وله حديقة — بأنه بيت عائلة ميسورة، فيما كانت تشير هيئته الظاهرة، وقربه من المخيم، إلى أنه يعود إلى عائلة مهمشة.

لم تظهر كذلك في موعدنا التالي. ولم تظهر في الحديقة بعد ذلك. اختفت أكثر من عشرة أيام، ثم عاودت الظهور في الحديقة، ولكن من دون أن تنتبه إلى إشاراتنا.

انقطعتْ عن مراسلتنا، كما كنا قد ضجرنا من هذا المشهد.

— ما كان اسمها؟

— هند.

— كيف عرفتما ذلك؟

— أطلقنا عليها الاسم تيمناً بهند رستم. اقتصر الأمر على مبادلتها بضع كلمات، إلا أنها أفاقت فينا طلباً جنسياً ما كنا نتحقق سابقاً من قوته: أهي التي أثارته أم أننا كنا نندفع صوبه؟

تباعدت علاقتنا، صديقي وأنا، بمجموعة المطعم. أصبحنا نتنزه من دون وجهة مقصودة، وباتت لنا عيون مراقبة، عيون تلصص: على النوافذ، على مداخل البيوت، ولا سيما في البنايات التي تقع على طريقنا الصاعدة صوب الكنيسة.

كانت تقع هناك — حيث ترتفع اليوم الإعلانات التجارية العملاقة — مجموعة من البنايات، ويطلق عليها اسم: «بنايات الضباط». لم نفز بشيء من هذه «البصبصة». صديقي ادعى — بعد انقضاء السنة الدراسية والتقائنا قبل سفري إلى تولوز لدراسة الطب — أنه فاز بمغامرة مثيرة مع زوجة أحد الضباط.

— ألنا أن نتوقف؟ عليّ الانتقال إلى موعدي الآخر.

— وبقية الكلام؟

— في وقت لاحق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— شكراً لقبولِكِ — عفواً لقبولكما — المجيء إلى «الاستراحة»، من دون سابق موعد أو معرفة.

— نحن في خدمة كل ما يفيد التحقيق، وما يفيد الدولة والقانون: أنا أعمل في القضاء، وزوجتي «مترجمة — محلّفة».

— إلا أن المقصود غير ما فهمتَ، سيدي. وما طلبتُه هو الاستماع إلى زوجتك وحدها.

— لن تتكلم إلا في حضوري.

— غير أنني لست في صدد تحقيق قضائي، سيدي.

— ماذا إذن!؟

— أدقق في أمور متصلة بحياة موكلي الذي تعرّف إليها أثناء الدراسة الثانوية.

— كل ما يتصل بزوجتي يخصني. يمكنك توجيه أي سؤال لها في حضوري.

— ماذا تقولين، سيدة حسانة؟

— إذا شئتَ.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— صباح الخير.

— صباح الخير. ماذا تشرب؟

— لا وقت لدينا.

— ألا نكمل الأخبار التي انقطعت أمس؟

— ربما على الطريق، في السيارة.

— إلى أين تقودني؟

— إلى العدوسية، الواقعة جنوباً.

— ما فيها؟

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ألنا أن نكمل خبر «بناية الضباط»؟

— نعم، ولكن بشرط أن تقود السيارة بدلاً مني.

— موافق.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— زارني صديقي بعد عودتي من تولوز في مطلع الصيف. دعاني إلى أن يكون لقاؤنا في المطعم عينه. لكنني ما إن وصلت حتى اقترح علي التمشي فوق الدرب عينه. ثم طلب مني مطلباً آخر، بل وجهة أخرى، إذ دعاني إلى التوجه، قبل الكنيسة، إلى الفسحة الداخلية التي كانت تتوسط «بنايات الضباط». فسألتُه: «من أين تعرفها؟ أتريد زيارة أحد فيها؟». لم يجب. توجه إلى إحدى البنايات بعد أن انتبه إلى وجود صبي يلاعب كرة قدم وحده على جدار، فسأله: «ألا تزال عائلة الضابط سرحان تسكن في تلك البناية؟»، مشيراً إلى بناية واقعة في جهة أخرى من الفسحة، فأجابه الصبي: «لا، انتقلتْ في نهاية الصيف الماضي». فعاود الاستفسار: «أكنتَ تعرف عائلة سرحان؟». فأجابه: «نعم. أعرف السيدة سرحان، ووالدي يعرف زوجها، أما ولدهما فما كنت ألعب معه، وهو أصغر من أن ألعب معه».

ثم غادرنا المكان، متوجهين صوب الدرب الصاعدة. فسألتُه: «عمن كنت تسأل؟»، فأجابني: «عملت عند عائلة سرحان في سنتنا الأخيرة... كنت أراقب دروس ابنها الصغير». فسألته من جديد: «كيف يحدث أنني ما علمت بهذه الواقعة عند حدوثها؟»، فلم يجب. ثم عاودت طرح الأسئلة: «كيف علّمتَ الولد؟». فأجابني: «ما إن نصل إلى أعلى التلة، ونستريح، سأخبرك بكامل الحكاية». وهكذا كان.

غير أنني لم أصدق ما كنت أسمع:

«كنت عائداً من التلة، وحدي، وإذا بي أستمع إلى صوت نسائي يصلني من إحدى الشقق: «يا أستاذ، يا أستاذ...»، من دون أن أتبين مصدر الصوت. فسألت: «أأنا المقصود؟»، فأجابني الصوت نفسه: «نعم، انظرْ إلى هذه الجهة». ثم تبينتُ وجه امرأة في كوة مفضية على الدرب، فسألتُها بعد التثبت من أنها المتكلمة: «ماذا تريدين؟»، فقالت لي: «أيمكنكَ المجيء إلى شقتنا لحاجة ملحة». فأجبتُها بالإيجاب».

دلتْ السيدة صديقي إلى الشقة، التي كانت تقع في الطابق الأول، في البناية التي أشار إليها الولد قبل دقائق. وسألتْه عما إذا كان في إمكانه مراجعة دروس ابنها، بعد عودته من المدرسة، لقاء خمس عشرة ليرة، بمعدل خمسة أيام في الأسبوع، ما عدا السبت والأحد. وافقَ صديقي على العرض، ودَعَتْه إلى مباشرة العمل في اليوم عينه، وأنهتْ حوارها معه بالقول: «توسمتُ فيك الخير ما إن رأيتك للمرة الأولى، إلا أنني ما كنت أحسن التوجه إليك بالكلام، وكان رفاق لك يرافقونك، إلى أن رأيتك اليوم وحدك».

باشر صديقي مراجعة دروس الولد منذ ذلك اليوم، حسب قوله: كان يصل إلى البيت قبله بدقائق معدودة، إذ ما كان يحتاج إلا لبضع خطوات للانتقال من الثانوية إلى الشقة، فيما كان يحتاج وصول الولد، بباص المدرسة، إلى حوالي الدقائق العشر. مضت الأيام الأولى من دون حدث يذكر، حتى أن صديقي ما كان يجرؤ على مبادلة السيدة سوى بعض العبارات الروتينية، وإن كانت سألتْه غير مرة أسئلة من نوع: أين تقيم؟ هل يكفيك المبلغ الذي اتفقنا عليه؟ ماذا تفعل على التلة العالية؟... إلى أن انقلبت الأحوال ذات يوم بسرعة ما تنبه لها صديقنا، ولا توقعَها: دعتْه إلى البقاء قليلاً بعد الانتهاء من الدروس، وطلبتْ من ولدها الخروج للعب. وهكذا كان. كانت تجلس اعتيادياً في الصالون، الذي يفضي على الفسحة، أمام المدخل، فتقوى على مراقبة أحوال الدرس. طلبتْ منه يومها — ولأول مرة — موافاتها إلى الصالون، لأنها كانت تريد أن تحادثه في أمر مهم.

كانت سمراء، تميل إلى شيء من الاكتناز، وتبدو عليها الحشمة في ما ترتدي، إلا أنها لم تتردد يومها في بث شكواها لصديقي، الذي ما كان يحسن حتى النظر إلى وجهها، ولا إلى شفتيها اللتين كانتا تتدفقان بالألفاظ: «أتظنني سعيدة في هذا البيت؟ لدينا أموال كثيرة من دون سعادة. أهذا بيت زواج أم بيت خدمة؟ أنت شاب، أنت رجل. أنت تعرف معنى ما أقول. ماذا تقول عن حال زوجة مثلي تنتظر زوجها مرتين على الأكثر في الشهر الواحد؟». وما إن توقفتْ قليلاً عن الكلام حتى بادرها صديقي بالاستئذان، بحجة أن سيارة أجرة تنتظره في الخارج، في هذا الوقت، لتقله إلى البرامية.

في اليوم التالي عاد كل شيء إلى سابق عهده، غير أنه انتبه إلى أنها رافقته إلى الباب بعد انتهاء الدروس، وبادلته الابتسامة قائلة على غير عادتها: «إلى اللقاء». ولكن بعد يومين انقلبت الحال تماماً، إذ ما إن وصل صديقي إلى الشقة حتى وجدها في ثياب النوم، من دون مكياج، تبادره بالقول: «عفواً، أنا مريضة». وما إن أراد صديقي الامتناع عن الدخول، حتى أمسكتْه بيده، وقالت له: «ألم تفهم بعد؟ أنا في حاجة إليك». دفعَتْه إلى غرفة نومها، إلى الفراش، وراحت تلتهمه.

تكررت المحاولة مرتين أخريين، ثم انقطع صديقي عن المجيء إلى بيتها تماماً، بعد أن راوده في عطلة نهاية الأسبوع كابوس وحيد: أن سيأتي الضابط زوجها فجأة إلى البيت، وسيطلق عليه الرصاص في فراشها.

— القصة مثيرة فعلاً.

— لكنها تشبه قصة فيلم مصري. أليس كذلك؟

— أتقول هذا اليوم؟ أم قلته لصديقك حينها؟

— قلته لنفسي بعد أيام على إخباري بها: أكان في وسامة عمر الشريف لكي تناديه هند رستم من مشربيتها؟

— لكنك رويتها كما لو أنها حصلت لك!

— ذلك أنني أدرتُها في رأسي أكثر من مرة.

أأنت تسخر مني؟

— لا ، معاذ الله.

انتبهتُ وحسب إلى أنك ترويها بدقة مذهلة: كما لو أنك عشتها... عفواً، كما لو أنك سمعتها بالأمس.

— لطالما أحببتُ روايات نجيب محفوظ.

— وماذا عن هند الأخرى؟

— انقطعت أخبارها، حتى أنني تحايلت بالسؤال عنها لدى صاحب المطعم، فأخبرني أخباراً متضاربة عنها. سمعتُ منه ومن غيره أخباراً مثيرة عنها، من نوع أنها كانت في زيارة لأقاربها، وأنهم كانوا يبحثون عن عمل لها في المدينة، لكنهم ما لبثوا أن أعادوها إلى بيت أهلها في القرية البعيدة، بعد أن سببتْ لهم الكثير من المشاكل؛ أو أنها مختلة عقلياً، وأنها دخلت إلى مستشفى للمعالجة في «الفياضية»؛ أو أنها «بنت هوى» استأجرت بيت أقاربها لبعض الوقت ولتمضية العطلة...

— إلا أنك في هذا كله لم تروِ لي قصة عاطفية... طبيعية، إذا جاز القول.

— هذا ما عرفتُه. قد تكون لصديقي قصص أخرى، مثل قصته مع حسانة. ماذا عن لقائكَ بها أمس؟

— ها أنت تستجوبني!

— سامحني.

— لم يكن اللقاء مفيداً، كما توقعتَ. وصلتْ إلى الموعد مع زوجها، ولم أحسن توجيه الأسئلة كما يجب، واقتصر الأمر على معلومات عن الدراسة، وعن أم كلثوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لماذا أم كلثوم؟

— لا أعرف. ما أعرفه هو أننا كنا نسهر، صديقي وأنا وماهر وسامي أو عادل أو محمد أحياناً، في «شم النسيم»، لسماع سهرتها المنقولة على الراديو:

كانت سهرات مشهودة، نتمرن فيها على حفظ الأغنيات؛ كنا نتأوه مثلها، فيما كان ماهر يسخر منا بالقول: «وما نفع ذلك مع البنات؟»

— ألا تزال الطريق طويلة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— تفضلا. أأنت الأستاذ مأمون؟

— لا، أنا هو. وأنتِ؟

— أنا ابنته... حادثتَني على التلفون أمس.

— شكراً على تلبية الطلب سريعاً.

— أفي الإمكان أن تنتظرا قليلاً قبل أن آتي به إلى الصالون؟

— نعم.

— لماذا استأذنتْ منا بهذه الطريقة؟

— لأنه مُقعد؛ كما أنه فقد نظره تماماً.

— وبماذا يفيدنا؟

— كما قلتُ لك: كان الأستاذ سليم «الناظر العام» في الثانوية، وكنا على احتكاك كثير به، ولا سيما في الإضرابات. لعل شهادته مفيدة.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أنا مأمون محمود، ابن الأستاذ سعد الدين، أستاذ سليم... أتذكرني؟

— نعم، بطبيعة الحال. كيف حال أبيك؟

— توفاه الله قبل سنتين.

— أنا آسف. ما كنت أعلم ذلك.

ماذا تريد؟ لم تحسن ابنتي شرح طلبك.

— أعمل مع صديق على جمع بعض الحكايات عن «ثانوية الزعتري»، التي تخص جيلي بالخصوص.

— ماذا تريدان أن تعرفا؟ الحكايات اختلطت في ذاكرتي تماماً.

— أإلى هذا الحد؟

— نعم. لماذا تبحثان في هذا الماضي؟ أليس في الحياة ما يبهج أكثر؟

— ربما.

— أنا لا أقرأ منذ وقت بعيد، كما ترى. لعل عملكما ممتع، قد يجلب بعض المسرة إلى قلوب قراء. فقد كان الوقت وقت طيش وتفتح، إن أردتُ الاختصار...

— ها قد بدأتَ من حيث نطلب.

— كنت أقول: هذا يذكرني بحادثة جرت لصديقك معي، يا مأمون. لا أظن أنك عرفتها.

غاب عن الثانوية مرتين من دون عذر شرعي، فأخطرته بأنه لن يقوى على الدخول إلى الصف من دون اصطحاب أحد أفراد عائلته معه. غير أنه لم يأت بأحد في اليوم التالي، متذرعاً بسفر أبيه إلى تركيا — وهو العامل في «مصلحة السكك الحديد» —، وبأن أخته لا تقوى على ترك وليدها الرضيع في البيت، وغيرها من الحجج الواهية. لم يدخل يومها إلى الصف، وكان أن أتى بأحدهم في اليوم اللاحق، فاعتذر عن غيابه المتكرر، وتعهدَ صديقك أمامنا بأنه لن يفعل ذلك بعد هذا اليوم. بعد انتهاء المقابلة في مكتبي، طلبت منه مصاحبة قريبه إلى مدخل الثانوية، والعودة إلي لتسليمه الورقة التي تسمح له بدخول صفه من جديد. ولما عاد وقَّعتُ على الورقة المناسبة، وخرجت معه إلى الممشى الطويل، وقبل أن يفترق عني للصعود إلى الصف، بسطت يدي على كتفه وأسررت إليه في أذنه: «في المرة القادمة، إن أردت المجيء بشاهد على أنه قريب لك، لا تصطحب معك سائقاً يعرفه كثيرون». تلعثم صديقك في قوله، غير أنني أدرت رأسي وعدت قافلاً إلى مكتبي.

— من كان السائق؟

— كان يعمل في مكتب «تاكسيات نوفل»، وكان يلبي طلبات الزبائن، هو ورفاقه الثلاثة، في غير قرية قريبة من المدينة.

— ما أردتَ أن تقول، أستاذ سليم؟

— لا أعرف كيف تواطأتُ معه في ذلك النهار، كيف سهلتُ له المهمة، كيف تناسيتُ التشدد المسلكي الذي طالبنا المدير الزعتري بتنفيذه.

يومها لم أنقطع عن الضحك على ما جرى، على ما فعل، بعد أن تنبهت إلى أنه لا يحسن التحايل أبداً.

— ولماذا فعلتَ ذلك؟

— تحققتُ يومها من حنوي العاطفي عليه. لا أعرف سبب ذلك. ربما لأنه كان يعيش بعيداً عن أهله. ربما لأنني كنت أتبرم من وظيفة «الناظر العام» التي أنيطت بي بعد سنتين وحسب على تخرجي من «دار المعلمين العليا».

كنت أرى إلى شقاوتكم، يا مأمون، بعين بريئة، كما كانت. إلا أنني كنت أخشى في الوقت عينه مما بدا أنكم تنغمسون فيه من أعمال عنفية، وإن من باب المرح، أو التمرد.

— إلى ماذا تلمح، أستاذ سليم؟

— إلى «جبهة التحرير»... أنسيتَها؟

— ما «الجبهة» هذه؟

— من المتكلم؟

— انه رفيق الرحلة، أستاذ سليم.

— لماذا لا ترويها بنفسك، يا مأمون، فأنا لست ملماً بنشأة «الجبهة»، ولا بعملياتها؟ وهي مناسبة طيبة لكي أسمع الرواية الفعلية، بعد أخبار كثيرة مجزوءة وربما مضللة عنها.

— حاضر.

محمد، صديقنا من الغازية، كان صاحب الفكرة: كنا نتبرم من مواد دراسية غير مفيدة لنا في امتحانات «شهادة الفلسفة»، مثل مواد الجغرافيا والتاريخ والكيمياء والرياضيات وغيرها. فأعددنا بياناً أولياً عن تأسيس «الجبهة»، شرحنا فيه أهدافنا، وتكفل سامي بسحب نص البيان على آلة «الستانسل»، في مكتب أبيه التجاري، في وسط المدينة. وختمنا بياننا بإشعار أولي: «انتظروا العملية الأولى للجبهة بعد يومين».

ذاع الخبر في الثانوية: سخرَ البعض منه، والبعض الآخر ضحك، فيما انصرف بعض الحزبيين من «الحزب الشيوعي» ومن «حركة القوميين» إلى التحقق من هوية كتبة البيان.

— لماذا؟

— لأن البيان كان يسخر من جبهات التحرير الفعلية، المحاذية في «المخيم»، ولأنه كان يسخر من أي عمل مناضل بل يحيله إلى محاكاة كوميدية.

— وهل كانت لكم عملية أولى؟

— اتفقنا على أن نتوزع في أمكنة مختلفة من حوشَي الثانوية، وأن نطلق صفاراتنا في دقيقة بعينها في «استراحة» الساعة العاشرة صباحاً، بعد أن تدبر عادل شراء عدد من الصفارات في المدينة. وهكذا كان: انطلقت الصفارات، وأحدثتْ ذعراً في الثانوية، وإذا بنا نتحقق، بعد صعودنا إلى الصف، من دخول المدير — وأنتَ، أستاذ سليم — إلى صفنا بالذات، مطالبين بتسليم الصفارات. لم يمتثل أي طالب للأمر، بل أنكروا ذلك، وخاطب عادل المديرَ بالقول: «لعلهم طلاب صف الفلسفة الثاني أو الثالث، لا نحن بأي حال». وكانت خيبة المدير كبيرة، إذ لم يجد، عند اضطراره إلى تفتيشنا، أي صفارة.

— توقفْ، يا مأمون. ماذا فعلتم بها؟

— كانت قيادة «الجبهة» تجلس على المقاعد الخلفية في الصف، فكان أن تناقلنا الصفارات حتى الطالب الأخير، سامي، الذي كان يجلس إلى جانب النافذة، والتي كانت تفضي على إفريز باطوني يقع في الجهة الخارجية من الغرفة.

— برافو.

قلْ لي، يا مأمون، أمراً آخر: أأنتم فعلاً من بدد محتويات «ملفات» عدد من الطلاب في مكتبي؟

— نعم، سامحني، أستاذ سليم.

— كيف نجحتم في ذلك؟

— أتذكر الأستاذ غالب، أستاذ الجغرافيا؟

— نعم. ما له؟

— تحيَّنّا فرصة حلوله في مكتبك في فترة الغداء، ثم دخل عليه أحد الطلاب، وأخبره بوجود عراك دموي في المبنى الآخر. فكان أن خرج من المكتب من دون أن يقفله، فدخلتْ مجموعة من الطلبة وسرقتْ عدداً من «الملفات»، ثم اتجهتْ سريعاً إلى المراحيض وأتلفتْها.

— ولكن لماذا فعلتم ذلك؟

— خفتُ، أستاذ سليم، مثلما خاف غيري، ممن كان قد تقدم بطلب انتساب إلى جامعة أجنبية، من مغبة وقوع الإدارات الجامعية المعنية على الجانب السلوكي السيئ في ملفاتنا.

— أتعرف، يا مأمون، أنني لم أنتبه إلى الأمر إلا بعد أيام على حصوله. ولم أنجح في فك خيوط الحكاية، على الرغم من شكّي في أنها من أفعال

«جبهتكم». وما استوقفَني يومها أنني لم أفهم الداعي إلى ذلك، بعد أن وجدتُ «ملفات» مسروقة تعود إلى بعضكم، لا إلى كلكم، عدا أنني قد نسيت مضمونها من دون شك؛ كما تنبهت إلى وجود «ملفات» مسروقة لطلبة مجتهدين ومنضبطين في الرزمة ذاتها.

— عفواً، مرة ثانية، أستاذ سليم.

— أقلقتني كثيراً الحكاية الثانية؛ أكثر من الأولى، على أي حال.

— لماذا؟

— تنبهتُ إلى أن فيها ما يبتعد عن الدعابة السمجة لمراهقين يتوخون إسماع أصواتهم عالياً، مثل الصفارات المزعجة...

— ماذا أقلقكَ فيها؟

— أنها عمل عنفي صريح، يعاقب عليه القانون، لا المدرسي وحسب.

لعلها إشارات مبكرة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— شكراً، أستاذ مأمون، على كل ما فعلتَه.

— أتعرف أنني بقدر ما فرحتُ في استذكار هذه الأخبار القديمة حزنت. تقلبتُ كثيراً في فراشي ليلة أمس. استيقظت وعلى شفاهي سؤال مرير: أكان لتلك الأيام أن تؤدي بي إلى حيث أنا اليوم؟

— هناك طعم خسارة، على ما أرى. لماذا؟

— لا تخبر صديقي باسم زوجتي.

— لماذا؟ أهو يعرفها؟

— يعرف اسمها. يعرف أنها بنت الجيران.

— ماذا يعني هذا؟

— لم أبتعد عن بيتي، بعد عودتي الخائبة من فرنسا، سوى أمتار قليلة.

ماذا عن صديقي؟ هل تزوج؟ متى رأيته للمرة الأخيرة؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حضرة الأستاذ المحترم،

التحية الخالصة، وبعد

يعنيني إفادتك أنني أنهيت عملي الأولي، ولقد جمعتُ — حسب الاتفاق — عدداً من المواد التوثيقية والصور الفوتوغرافية وغيرها. كما نجحتُ في تسجيل بعض الحوارات على آلة تسجيل، وفي تخزين بعض المواد والصور على قرص مدمج. غير أنني لم أنجح في تحصيل معلومات عن بعض المعارف، مثل: — «سيرين» الأرمنية: هاجرَ أهلها إلى يريفان، في أرمينيا، بعد تحرر هذا البلد من منظومة «الاتحاد السوفياتي»، وهي لم تتزوج، على ما قالت ابنة أخيك؛

— «غاندي»: انتقل بعد اندلاع الحرب إلى الإمارات العربية المتحدة؛ وهو يقيم في الشارقة ويعمل في دبي؛

— «عصام»: لا أحد يذكر اسمه، ولا اسم عائلته، ولا حكاية وقوفه في التابوت، يوم تشييعه، في الشارع: الحكاية مثيرة، وتحلو لي معرفتها منك؛

— «كليمانس»: لا تعرف ابنة أخيك أول «الطلعة»، حيث كان يقيم أهلها. أتساءل: أكنتم تعيشون فعلاً في البيت عينه؟

— «الأستاذة فيوليت»: انتقلت هي وعائلتها، بعد بيع بيتهم الجميل، إلى «حرش تابت»؛ كما تحققتُ من أن النافورة لا تزال في وسط الحديقة، وأن شجرة الميموزا «تحنو على النافورة» (كما وصفتَها)؛

— «ماري — كلير الغنوجة»، صديقة أختك، هاجرتْ إلى أوستراليا بعد أن تزوجتْ من شحادة، على ما قال لي طوني سلامة، أخوها، الوحيد في بيت أنجح في فك خيوط الحكاية، على الرغم من شكّي في أنها من أفعال «جبهتكم». وما استوقفَني يومها أنني لم أفهم الداعي إلى ذلك، بعد أن وجدتُ «ملفات» مسروقة تعود إلى بعضكم، لا إلى كلكم، عدا أنني قد نسيت مضمونها من دون شك؛ كما تنبهت إلى وجود «ملفات» مسروقة لطلبة مجتهدين ومنضبطين في الرزمة ذاتها.

— عفواً، مرة ثانية، أستاذ سليم.

— أقلقتني كثيراً الحكاية الثانية؛ أكثر من الأولى، على أي حال.

— لماذا؟

— تنبهتُ إلى أن فيها ما يبتعد عن الدعابة السمجة لمراهقين يتوخون إسماع أصواتهم عالياً، مثل الصفارات المزعجة...

— ماذا أقلقكَ فيها؟

— أنها عمل عنفي صريح، يعاقب عليه القانون، لا المدرسي وحسب.

لعلها إشارات مبكرة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— شكراً، أستاذ مأمون، على كل ما فعلتَه.

— أتعرف أنني بقدر ما فرحتُ في استذكار هذه الأخبار القديمة حزنت. تقلبتُ كثيراً في فراشي ليلة أمس. استيقظت وعلى شفاهي سؤال مرير: أكان لتلك الأيام أن تؤدي بي إلى حيث أنا اليوم؟

— هناك طعم خسارة، على ما أرى. لماذا؟

— لا تخبر صديقي باسم زوجتي.

— لماذا؟ أهو يعرفها؟

— يعرف اسمها. يعرف أنها بنت الجيران.

— ماذا يعني هذا؟

— لم أبتعد عن بيتي، بعد عودتي الخائبة من فرنسا، سوى أمتار قليلة.

ماذا عن صديقي؟ هل تزوج؟ متى رأيته للمرة الأخيرة؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حضرة الأستاذ المحترم،

التحية الخالصة، وبعد

يعنيني إفادتك أنني أنهيت عملي الأولي، ولقد جمعتُ — حسب الاتفاق — عدداً من المواد التوثيقية والصور الفوتوغرافية وغيرها. كما نجحتُ في تسجيل بعض الحوارات على آلة تسجيل، وفي تخزين بعض المواد والصور على قرص مدمج. غير أنني لم أنجح في تحصيل معلومات عن بعض المعارف، مثل: — «سيرين» الأرمنية: هاجرَ أهلها إلى يريفان، في أرمينيا، بعد تحرر هذا البلد من منظومة «الاتحاد السوفياتي»، وهي لم تتزوج، على ما قالت ابنة أخيك؛

— «غاندي»: انتقل بعد اندلاع الحرب إلى الإمارات العربية المتحدة؛ وهو يقيم في الشارقة ويعمل في دبي؛

— «عصام»: لا أحد يذكر اسمه، ولا اسم عائلته، ولا حكاية وقوفه في التابوت، يوم تشييعه، في الشارع: الحكاية مثيرة، وتحلو لي معرفتها منك؛

— «كليمانس»: لا تعرف ابنة أخيك أول «الطلعة»، حيث كان يقيم أهلها. أتساءل: أكنتم تعيشون فعلاً في البيت عينه؟

— «الأستاذة فيوليت»: انتقلت هي وعائلتها، بعد بيع بيتهم الجميل، إلى «حرش تابت»؛ كما تحققتُ من أن النافورة لا تزال في وسط الحديقة، وأن شجرة الميموزا «تحنو على النافورة» (كما وصفتَها)؛

— «ماري — كلير الغنوجة»، صديقة أختك، هاجرتْ إلى أوستراليا بعد أن تزوجتْ من شحادة، على ما قال لي طوني سلامة، أخوها، الوحيد في بيت أهله؛

— لم أعثر — كما طلبتَ مني — على كتابات ورسوم في سطح البناية، عدا أنني وجدت صعوبة في الوصول إليه، بعد أن تحول قسم منه إلى قن دجاج؛

— «سينما لوكس» مغلقة، منذ زمن بعيد، بدليل الصدأ الشديد الذي يعلو الشبكات الحديدية التي تزخرف بابَها العريض...

كذلك هي حال «سينما ريفييرا»، على الرغم من أن مساحة الإعلانات، المخصصة لأفلامها في المنتصف الوسطي لواجهتها، لا تزال في مكانها، ولكن من دون إعلانات؛

— «هاروت نيوز» تحول إلى محل للسندويشات.

— انتقلتُ إلى الجنوب، غير أنني لم أجد أثراً لعائلة حجار في عبرا، ولا لعائلة سليمان في «درب السيم»، إلا أنني توجهتُ — بناء لتوجيهات صديقك مأمون — إلى العدوسية، والتقيت فيها بالأستاذ سليم، «الناظر العام».

يبقى أن أشير إلى سيدة عجوز التقيتُ بها في البرامية: كانت على الطريق العام تسير عند الغروب بلباس النوم؛ دعاني مأمون للتوقف، بل للعودة إليها، بعد أن تبين أنها تشبه أم طلال، صديقكما في الثانوية: لم أنجح حتى في تدوين أي جملة مفيدة من أقوالها، بل ارتعبتْ وصرخت بمجرد أن أخرجتُ آلة التسجيل من حقيبتي الجلدية. أتعرفها؟

في انتظار توجيهاتك، تقبل فائق الاحترام والتقدير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أأنت طوني سلامة؟

— نعم. وأنتَ؟

— أنسيتَني؟

— هل عرفتُك فيما مضى؟

— كنا في المدرسة نفسها.

— أيها؟

— «مدرسة مار مخايل». ألي بالجلوس؟

— من تكون؟

— لا يهم. أيمكنني الجلوس؟

— تفضل.

— لا، على الشرفة.

— كيف تعرف أن للبيت شرفة، وفي هذه الجهة؟

— أما قلتُ لك بأننا نعرف بعضنا؟

— تفضل. أمرُك يحيرني.

— البيت هادئ، على ما أتحقق.

— أنا وحدي منذ سنتين. إخوتي في سيدني، وابنتي الوحيدة تزوجت قبل شهور.

— وزوجتك؟

— أنا مطلق منذ سبع سنوات.

— وحيد في هذا البيت الكبير!

— وكيف تعرف أنه بهذا الكبر؟!

— أما قلتُ لك بأنني أعرف أشياء وأشياء؟

— أرجوك، قلْ لي من أنت. ماذا ترغب في الشراب؟

— كوب ماء.

— فقط. ألا تريد شراباً كحولياً؟

— لا، شكراً.

— أستأذنك.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لعلك ستتذكرني بعد قليل... ليس المهم من أكون؛ المهم ما تعرفه عن هذا الشخص. أتعرفه؟

— لا.

— وهذه الصورة؟

— لا.

— أتتذكر ابن داغر؟

— نعم.

أترى السيارات التي يعملون على إصلاحها هناك؟

— نعم.

— عائلة أخيه تعيش في البناية المقابلة، في الطابق الأول.

— ماذا تعرف عن رفيق المدرسة؟

— كان فعلاً رفيق المدرسة، لسنة واحدة فقط، ولكن من دون أن نتبادل سوى عبارات قليلة بحكم سكننا القريب. ثم تصادقنا بعد سنوات على ذلك، بعد أن انتقل للدراسة الثانوية في الجنوب.

— هل انتقلتَ بدورك؟

— لا، هو الذي انتقل.

كان يمضي غالباً عطلة نهاية الأسبوع، هنا، ثم يغادر صباح الاثنين للالتحاق بمدرسته.

— صداقة متينة، عابرة للسنوات، على ما يبدو.

— لا أظن ذلك. كان يحضر ويختفي فجأة. بعد دراستنا معاً في «مدرسة مار مخايل» اختفى، ثم عاد بعد ثلاث سنوات، لكي يختفي ويظهر مؤقتاً.

— ما سبب ذلك؟

— أظن أنه كان مُكرهاً دوماً على فعل أمور يقررها غيره عنه.

— كيف ذلك؟

— عائلته «قروية»، وأحوالها المالية متدنية. تدبرَ له والده مدرسة داخلية بالمجان لكي لا يتكفل بأقساط المدرسة.

— وفي الجنوب؟

— وضعَه في ثانوية رسمية.

— وكيف تصادقتما؟

— قد لا تكون الكلمة دقيقة. أخته كانت صديقة أختي ماري — كلير، من دون أن تكون صديقتها فعلاً: كانت — إذا جاز التشبيه — كاتمة أسرارها، عدا أنها كانت تكلفها ببعض المهام.

— مثل ماذا؟

— أن تساعدها في أعياد ميلادها.

— أكانت لها أعياد ميلاد عديدة في السنة الواحدة؟

— نعم. كانت أختي تهوى ذلك: الأعياد والسهرات. وكانت أخته تهوى الدخول إلى عوالم اجتماعية لا تعرفها.

— علاقة متفاوتة، إذن.

— تماماً.

— وماذا عن علاقتك به؟

— علاقة محدودة، اقتصرت على بعض السهرات. ألا تريد أن تشرب كأس ويسكي معي؟

— لا، شكراً.

— استَعَدْتُ علاقتي به بالصدفة. كانت لي علاقة قوية بجارنا زوهراب، صاحب محل تصليح سيارات في بناية مجاورة. كنا نمضي سهرات السبت معاً، في سيارته «الفيات» التي جعلها مثل سيارات «السبور».

— أي سهرات؟

— كنا ندور وندور: في «الزيتونة»، في «الروشة»، في «البرج» وغيرها.

قبل دوراتنا هذه، كنا ندور في الحي طمعاً برؤية إحداهن أثناء نزهتها، أو على شرفتها، وإذا بنا نقع ذات مساء على رفيق المدرسة، أمام البناية: حتى الآن لا أعرف ما الذي جعله يقف أمام البناية، في الشارع، ببدلته الرصينة؟ كأنه كان ينتظرنا، أو غيرنا، إلا أنه صعد إلى السيارة بمجرد سلامي عليه.

كنا ندور من دون هدف. وكان يعنينا، زوهراب وأنا، أن نُظهر له بأننا «رجال»، بأن لنا مغامرات نسائية «ساخنة». فعند سؤاله لنا عن وجهة النزهة، أجبتُه بأننا «نتصيد» نساء في الليل. لم يعلق. اكتفى بتلفظ أسئلة وأقوال مبعثرة. سألَنا سؤالاً واحداً بيناً: «أين تتصيدان؟»، فأجبته: «لنا أكثر من مكان: «الكيت كات»، «ملهى طانيوس»، «كازينو بطرس» في الدورة...». ثم أتبعَه بسؤال آخر: «وكيف تتصيدان؟»، فأجابه زوهراب: «أنا أعرف».

لا أعرف ماذا دهانا على قول تلك الادعاءات...

— أكان أصغر منكما سناً؟

— لا. لكنه كان يتابع دراسته، فيما كنتُ قد انقطعت عنها، وبدأت بالعمل.

ما حدث في تلك الليلة لن أنساه مدى العمر: قنبلة في سماء معتمة.

درنا دورات عديدة في مرات سابقة من دون أن نحظى إلا برؤية مومسات كن يقفن في بعض الزوايا المعتمة. في تلك الليلة، ما إن وصلنا بسيارتنا إلى جانب سينما «الروكسي»، حتى تنبهنا إلى وجود إحداهن على الرصيف؛ اقترب منها زوهراب بسيارته، ودعاها إلى الصعود، فصعدت مباشرة إلى المقعد الخلفي. لم نصدق ما حدث، وحرنا في أمرنا: ماذا نفعل بها؟ أين نأخذها؟ طالبَتْنا المومس بقنينة عرق وبليرتين.

أشعلتُ مفتاح الموسيقى، التي انبعثتْ من السيارة عالياً لكي يسمعها القاصي والداني، كما في حفلة عرس، فيما قرر زوهراب التوجه جبلاً. التفتُّ إلى الخلف، فإذا به مذعور العينين. دَعَوتُه للاهتمام بها، ما دام إلى جانبها، في انتظار أن نصل إلى مكان معتم في الجبل. فإذا به يبادرني: «ليس في جيبي ما يكفي من المال». ضحكنا، زوهراب وأنا، بل صُحْنا، فيما تأوهتْ المومس في غناء «يا ظالمني» لأم كلثوم. فسألتُها: «أهو ظالمُكِ؟». فأجابت بالإيجاب. لم تمضِ ثوان قليلة حتى وجدتُ المومس قد قفزتْ إلى حضنه، وراحت تعلو وتهبط بجسمها فوقه، ثم فتحتْ أزرار قميصها وأخرجتْ ثدييها إلى الهواء، فيما تعالى صياحنا معاً، كما لو أننا نمارس الجنس معها في الوقت عينه.

— أهذا ما تكرر أكثر من مرة؟

— لا. مرة واحدة فقط.

— تواعدنا في السبت التالي، ثم ما بعده، ولكن من دون جدوى.

— وماذا عن علاقتكما به؟

— انقطعت من جديد.

— كما بدأت...

أما التقيته بعد ذلك؟

— بلى، عند خطوبة أختي الأولى.

— أخطبتْ أكثر من مرة؟

— خطبتْ أحدهم، ثم تزوجت من غيره بعد شهر، بل هاجرت معه إلى أوستراليا.

— كيف كان لقاؤكما الأخير؟

— من قال لك إنه الأخير؟

— ...

— فعلاً كان اللقاء الأخير.

كان هذا الصالون غاصاً بالمدعوين. لم ندعُه إلى حفل الخطوبة، لكن أخته طالبَتْه بمرافقتها. تبادلنا بعض عبارات المجاملة، وسألتُه: «أما من مغامرات؟»، فأجابني: «بلى، ولكن في الجنوب». «أين ذلك؟»، سألتُه، فأجابني: «قرب الثانوية». لم أعلقْ على كلامه؛ كان يكذب من دون شك. ثم سألني: «وماذا عن مغامراتك؟»، فأجبتُه بأنني انقطعت عن معاشرة المومسات، وانصرفت إلى الصبايا الجميلات من بنات الحي. فقال لي: «مثل مَن؟»، فأشرتُ بحركة تلقائية إلى سيرين الأرمنية... انقطع حوارنا فجأة، من دون أن أعرف يومها أنه وسيرين كانا يعيشان في البناية نفسها. بل كانت دهشتي أكبر إذ رأيته يراقصها «التانغو»... لعلها راقصتْه من باب الخجل، من باب الجيرة، ما خرب مخططي.

— وماذا كان؟

— كنتُ أتحين مثل هذه المناسبات لشبك علاقات مع بعضهن تتعدى النظرات العابرة والتحيات الملتبسة. هذا ما رجوتُه من مجيء سيرين وغيرها إلى الحفل، خاصة أن أخاها سركيس تخلف عن الحفل لسبب أجهله.

— تضايقتَ من الأمر، إذن.

— لا. ما ضايقني هو أنه ما كان يحسن نقل خطاه في الرقص.

— أكنتَ تراقبه؟

— لا. هذا حصل عفواً، إذ وجهتُ له ملاحظة بعد توقفهما عن الرقص، فضحكت سيرين، ثم ضحك هو بدوره... لم ينقطع عن مراقصتها طوال

الحفل. لكنني كنت أعرف، بمجرد خروجه من البيت، أنه لن يزورنا بعد اليوم.

— أهكذا كان؟

— نعم.

— أأنتَ أكيد من أنه لم يزر هذا البيت أبداً؟

— طبعاً.

— أأنت أكيد من أني لست ابن داغر؟

— أنا أكيد. لك لحية، ولا تلبس نظارات... لم تكشف لي هويتك!

— بلى.

— لا.

— لعلك لم تنتبه إلى ما دار بيننا؟

— بلى. أستزورنا مرة أخرى؟

— لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

— ها أنتَ تقودني بيدي مثل طفل!

— أو مثل عجوز.

— أو مثل غريب عن المشي في نزلة رملية.

— أو مثل من فقد عادات المشي هذا، بعد أن اعتاد على الأرصفة المبلطة والسجادات الميكانيكية.

— أأنتَ مُصرٌّ على قول هذه الجمل المتكررة لكي تنسيني هذه الانزلقات الممكنة؟ ألا تكون أنت الخائف من النزول هذا؟ أو من العودة هذه؟

— أنا حريص على إنهاء ما بدأنا به.

— ولكن ماذا يعني حرصك هذا، بل إصرارك على المجيء بي إلى هذه الجهة التي لا أرى فيها آدمياً واحداً؟ أعلينا أن ننتقل من غرفة معتمة إلى خلاء؟

— لستَ في خلاء أبداً، والأشجار ترافقنا، بل تستقبلنا مثل موكب في صفين.

— صحيح، عدا أنني سمعتُ قبل دقائق نقيق ضفدعة بعيداً!

— ستسمعه أكثر، إذ نقترب من النهر.

— أتقودني إلى نزهة؟ ولماذا آلة التسجيل وحدها؟

— لن يكون معنا غيرها: لا ثالث، ولا مستمع.

— أهي تكفي؟

— قد نحتاج إلى غيرها، من يدري؟

— ولكن ما سيقال سيقال حكماً؛ ولن يكون هناك تصحيح ولا تنقيح ممكنان. أأنت قانع بهذا؟

— نعم.

— ما سيقال سيقال لمرة أولى وأخيرة. هل أنت قابل؟

— نعم.

— أبكل المخاطر أو الانزلاقات الممكنة؟

— نعم.

أرجوك، لا تفلت يدي الآن. عليك أن تتثبت من موضع قدمك على الحجر.

— على أي حال، أنا أحسن السباحة.

— تمسكْ جيداً بيدي.

...

— لماذا أتيتَ بي إلى هذه الصخرة؟

— لكي نستريح.

— ثم؟

— لا تكن متأهباً ومستنفَراً. لا شيء يدعو إلى القلق.

— لكنه يدعو إلى الانتظار.

— ماذا تنتظر؟

— أنتظرك. أريد أن أعرف لماذا خططتَ لهذه الرحلة البعيدة؟

— هذا سياق، ليس إلا. سياق آخر، إذا شئت.

أنسيتَ أنه سبق أن حدثتني عن صخرة في كرم؟

— من أين أبدأ؟

— كما قلتُ لك في السابق: من حيث تشاء.

— من هذه الصخرة؟

— إذا شئتَ.

— هل تعرفها؟

— كما لو أنني سويتها بيدي، حتى أنني قادر على نحتها غيابياً...

— ... أنتَ!

— طبعاً... هذا لو كنتُ نحاتاً.

ألا تلاحظ كيف أنها مرتكزة على قاعدتها مثل إجاصة؟

— التشبيه جميل. أهو مستعاد؟

— قلتُه للتو.

ألا تريد أن ننزل لنرى إليها من غير زاوية؟ أليست لك رغبة في إحاطتها بيديك؟

— أهذا ما كنت تفعله؟

— فعلتُه لمرات ومرات: كانت شريكة أولى في الرقص.

— ولعلك جلست مرات كثيرة هنا.

— لا أحسن تعدادها. العدد لا يهم، المهم هو أنني توصلت إلى جلسة مريحة فوق سطحها الخشن والمدبب، كما تلاحظ.

— وأنا أيضاً. غير أنه يصعب على ثالث الجلوس إلى جانبنا.

— هذا ما طلبتُه: لا أحد ينازعني عليها، ولا أقوى على التركيز إلا فيها.

— مثل سمعان العامودي؟

— ما كنتُ علمت بقصته لما ابتعدت عن غيري للجلوس فوقها.

— ولماذا ابتعدتَ؟

— كنت أحتاج إلى مكان أكيد: أتحسسه ويستقبلني.

— لكن يصعب عليك، هنا، التمدد... عليك أن تبقى جالساً، وناظراً حكماً إلى النهر، أو الجبل، أو البيوت، ليس إلا.

— نعم. في مثل هذا المكان شعرتُ بإمكان رفع نظري، وتوزيعه في غير اتجاه.

— أفي هذا ما كان يطمئنك؟

— طبعاً. كثيراً.

— ممّ كنتَ تخاف لكي تأتي إلى هنا؟

— ما كنتُ خائفاً، بل كنت غائباً. ما كنت أقوى على قول جملة حتى، وما كان ينتظر أحد مني أي جملة. حتى وإن تكلمت، ما كان أحد يعير كلامي اهتماماً.

— ومن كان يستمع إليك إذ تأتي إلى هنا؟

— لا أعرف. المهم أنني كنت أطلق جُملاً أستسيغها أو تنزلق على لساني.

— كمن يغني وحده في حمام!

— أو يستعيد مشهداً سابقاً، أو مكالمة مشتهاة...

كانت أقرب إلى خشبة وإن من دون متفرجين.

— ولكن من وضعَ هذه الجمل فوق شفاهك؟

— لا أذكرها أبداَ. أذكر وحسب أنها كانت تريحني بحيث كنت أعود إلى البيت خفيف الخطوات. وذلك إلى اليوم الذي راجت فيه أخبار مقلقة عني...

— كيف ذلك؟ متى ذلك؟

— دعد هي التي فعلت ذلك، بعد أن أشاعت عني أنني «أَخْوَت».

— ما تعني «أخوت»؟

— مجنون، مختلّ عقلياً.

— لماذا قالت هذا؟

— هي لم تقل ذلك، بل أشارت إليه.

راج عني أنها ضبطتني أمام مصطبة بيتهم، أثناء طريق العودة، وأنا أتلفظ جملاً بصوت عال. عدا أنني — على ما قالوا — كنت أخط عبارات في الهواء كما فوق لوح مدرسي.

— وهل كان الخبر صحيحاً؟

— لا أعرف.

— وكيف عرفوا ذلك؟

— قالوا إن دعد نادتني من دون أن أجيب.

— وماذا قالت؟

— دعد ترسم ما تقول، لا أكثر.

— كيف ذلك؟

— دعد خرساء. لم يكن في إمكاني مواجهتها، ولا التحادث معها...

— ... ولا حتى بالإشارات؟

— بلى. ولكن انقطعتْ علاقتنا قبل ذلك، بما لا يسمح بتبادل الإشارات والحركات.

— ولماذا انقطعتْ؟

— لنتركْ هذا إلى مسعى آخر. أنسيتَ الصخرة؟

— هل أتيتَ بدعد إلى الصخرة؟

— مرة واحدة.

— أجَلستْ إلى جانبك، كما أنا الآن؟

— خافت من الصعود.

— لماذا أتيت بها؟

— لكي تشاركني هذه المتعة.

— ولماذا لم تعد مرة ثانية وثالثة؟

— حدث ما أغضبها.

— متى؟

— في طريق العودة.

— أين؟

— في المطحنة.

— أي مطحنة؟

— في المبنى المهجور الذي يقع بعد النزلة الرملية.

— وماذا كان الداعي إلى زيارته؟

— كنت أريد أن أريها أشكالاً ورسوماً فوق الحيطان...

— وبعد؟

— دخلتْ معي...

— وماذا رأت؟

— رأت أشكال وجوه، وقلباً مطعوناً بخنجر ورسوماً أخرى.

— ما هي؟

— لا داعي لذكرها.

— ما هي؟

— كان هناك رسم لعضو جنسي ذكوري، فسألتْني: «ما هذا؟». لم أجب بشيء، بل ابتسمتُ. ثم كررتْ السؤال، فقلتُ لها: «إنه «عَرْنوس» ذرة».

— ماذا يعني «العرنوس»؟

— انه «الشَّمُّوط»، كما نقول أيضاً، أي ثمرة الذرة.

— وماذا فعلتْ بعد ذلك؟

— أشارتْ بيدها إلى الرسم، ووضعتْ يدها على فمها، كما لو أنها تقول: هو يؤكل إذن. فقلتُ لها: «أجل». فضحكتْ، ثم راحت تتحسس الرسوم بيدها، فاقتربتُ منها أكثر... إلى أن نفرت مني.

— هل اقتربتَ منها كثيراً؟

— تقريباً.

— كيف ذلك؟

— كنت أظنها تعرف ما تشير إليه، وأن ضحكتها تحمل من اللهو ما يحتمله الوضع بيني وبينها، من دون رقيب، في مكان على شيء من العتمة.

— أأردتَ منها أن تقطف ثمرتك؟

— لا داعي لمثل هذا الكلام.

— كانت تثق بك لكي تأتي معك إلى هذا المكان المهجور والبعيد عن الأنظار: لماذا نفرتْ منك؟

— لا داعي لهذا الكلام.

— هل عادت وحدها؟

— ...

— أنبقى على الصخرة؟

— إن شئتَ...

هذا يريحني كثيراً. كما لو أنني تركت مقعدي هذا قبل يوم، لا قبل سنوات وسنوات.

— أهو الطعم الطيب للقاء أم طعمُ حنين؟

— لا أحسن التمييز بينهما. حيث أنا، أجد العالم مستقراً حولي، أمامي خصوصاً.

— هكذا تشرف على النهر، وتترامى أمامك البيوت...

هي مقفلة على ما يبدو.

— كيف عرفتَ ذلك؟

— لا أثر لغسيل منشور على أي منها. ألِهذا أتيتَ بي في هذا الوقت؟

— قد يكون بعضها مقفلاً، ولكن مسكوناً. من يدري؟

— أينه بيت دعد؟

— ...

— لنعدْ إلى الصخرة: وقع نظري، أثناء المجيء، على صخور كثيرة وكبيرة، ولها أشكال لافتة، حتى أنه خُيِّل لي أنها منحوتة. أهي كذلك؟

— لا، هي صخور طبيعية، وإن ظن البعض أنها بقايا لآلهة وثنية.

— تبدو عارفاً فيها. ألها تاريخ غارق في القدم؟

— من دون شك. هي السابقة أو التي تبدأ بها أي سيرة.

— ألهذا بدأتَ بها؟

— هي قبلي، وبعدي أيضاً.

لعلها بقايا معبرة مثل نقوش آثار.

— ماذا قرأتَ في علاماتها؟

— لها كتل ضخمة في الغالب، أو بقياسات إنسانية أحياناً. ولها أشكال مدببة مسنونة، ما يدل على تكوينها القديم. عليك أن تجلس إليها بتؤدة، ما يشير إلى ملمسها المقيم والمعتم.

— ألا تعود بي إلى المتحف الذي لم أزره معك؟

— ...

— لماذا تعود بنا إلى ما سبق؟

— ...

— لماذا تعود بنا إلى ملايين السنين، لا إلى أشهر قليلة وحسب؟

— ...

— ألا تنتبه أنك ترى إليها مثل لقى نفيسة في واجهات عرض؟

— هي كذلك، خاصة أن أعداداً منها استقرت كما لو أنها وضعت للتو، لا قبل ملايين السنين، مثل جرار أو خوذ أو معاول...

— ...

— أو مثل هيئات بشرية. أو تفجرات. أو شظايا كونية.

— ...

— تفرستُ طويلاً فيها، حتى أنني رحت أبادل بعضها التحية عند مروري بها، أو عند الوقوع عليها، مثل هذه التي تعلو السنديانة.

— أباتت أليفة مثل جارة؟

— نعم.

— أكنتَ تبادلها كلاماً؟

— أحياناً.

— صحيح، إذن، ما كانت ترسمه دعد عن حركاتك.

— لا، هذا لم تكتشفه بل شرحتُه لها.

— كيف ذلك؟

— قلت لها إن لي قدرة على توجيه الحركات والإشارات مثلها... كنا نتفاهم بيسر... لهذا كنتُ المفضل لديها.

— أكانت تحبك؟

— ...

— أكنت تحبها؟

— ...

— ماذا تعني، إذن، الأفضلية التي تحدثت عنها؟

— ما كانت تأمن لأحد.

كانت مهملة، أو ملقاة على مرأى من العابرين.

كان لزاماً علي المرور أمام بيتهم، وكانت دوماً على المصطبة: جالسة من دون أن تنتظر أحداً، ولا تغادر لكي تلتقي بأحد، أو لكي تقوم بعمل. ما كنتُ أبادلها حتى التحية، إلى أن علمتُ أنها فقدت القدرة على الكلام، بعد سنوات على ميلادها، وأنها تفهم ما يقال لها في الغالب، وأن لها لغة خاصة بها.

— أرحتَ تبادلها التحية، إذن؟

— بل انتبهتُ ذات يوم — وقد سألتُها عن أبيها — أن لها عينين جميلتين، حتى صرت أشبههما في سري ب«الحسّون».

— عمّ تتكلم؟

— عن طائر بألوان متعددة وساحرة.

— لكن الحسون لا يقوى على التخاطب!

— بل يحسن التفاهم. هذا ما تعلمتُه معها ومنها بيسر، حتى وجدتني ذات يوم أضحك معها، بعد أن خيل لي أن عينيها تضحكان.

— ألك وحدك؟

— أظن ذلك، لأنها كانت كتومة حتى بين أهلها.

— أكنتَ تلهو معها؟

— كنت أبادلها بعض الكلام أمام مصطبتها.

— أكانت تنتظرك أمام المصطبة؟

— لا، كانت مثل الحبقة التي نلقاها أمام البيوت: تتزايد أوراقها، إلا أنك لن تشم رائحتها إلا إذا اقتربت منها.

— أما كنت تلهو معها في أمكنة أخرى؟

— ما كانت تخرج أبداً... عدا أنني كنت أخجل من الخروج معها، واللعب معها، أمام رفاقي.

— صديقة سرية أو مؤقتة.

— كانت تربكني وتجذبني في آن.

— ألهذا دعوتَها للمجيء إلى الكرم، إلى الصخرة، معك؟

— رفضَت الفكرة تماماً، مراراً، إلى أن أستوقفتني ذات صباح ودعتني بهزة من رأسها إلى المشي معها، على بعد خطوات منها. مشيتُ خلفها، وكان لي وقت لكي أتنبه إلى أنها، بخلاف عاداتها، كانت تلبس تنورة، لا بنطلونها البني المعتم.

— أهذا ما حرَّضك على فعلتك؟

— ...

— أما استقامتْ علاقتكما من جديد بعد ذلك؟

— لا، فقد أشاعت عني خبر أنني «أخوت»، ما جعلني أتجنبها.

— أنستريح قليلاً؟

— شكراً.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ها أنت — على الرغم من تمنعك عن الإجابة أحياناً — تبدو أكثر ميلاً إلى الإبانة. أهذا صحيح؟

— نعم.

— ألهذا علاقة بكونكَ مستلقياً الآن؟

— لطالما استلقيتُ إلى جانب النهر... بل كنت أغفو أحياناً بعد أن أدع عيوني تسرح في سماء الأوراق العالية.

— ما سبب هذه الهناءة؟

— الفسحات القليلة التي تحاذي الضفتين كانت خالية دوماً، لا يأتيها أحد، خاصة بعد شق الطريق الإسفلتية...

— ... أين ذلك؟

— هي التي ترجلنا منها قبل ساعات، والتي جعلتْ طريق النهر مهجورة.

لم تكن الفسحات مزروعة. كانت مساحات خالية، تصلح وحسب للعب: كأن تلعب بكرة القدم مع رفيق يتولى حراسة المرمى وأنت التهديف؛ أو تؤدي لعبة مسرحية بعد أن تبسط حراماً بين شجرتين وتقف خلفه وتجعل من أصابعك جوقة لعب ومرح؛ أو تقف واعظاً فوق صخرة مطلة على الفسحة لصبية صاغرين...

— تربية خارجية، إذا جاز القول؟

— تربية «على البعل» بالأحرى.

— ماذا تعني؟

— تعني الأشجار التي تنمو من دون ماء، من دون عناية أو رعاية.

— ولماذا؟

— كان الأهل مشغولين كفاية لكي يهتموا بنا، بتربيتنا.

— أكنا نتحدث عن تربية الأشجار أم عن تربيتكم؟

— ...

— أهذا يكفي في التفسير؟

— لا داعي للتنقيب.

— إذا شئتَ. غير أنني ألاحظ أنكَ تتحدث بيسر.

— هذا ما عشته منذ سنوات بعيدة: زنته مراراً، واستعدته مراراً، ومع ذلك تنبعث منه رائحة غريبة، ويلعلع فيه صوت في عتمة، كما ينقاد الكلام إلى حيث لم أحسب.

— مثل الحديث عن دعد؟

— مثل الحديث عن دعد.

— كيف ذلك؟ أباتت من الماضي السحيق، مما خفي أو يصعب تذكره؟

— اختفت إلى الأبد...

— متى؟

— بعد سنتين على خصامي معها.

— كيف ذلك؟

— انتقلتْ عائلتها إلى «شِكّا»، بعد أن نجح والدها في إيجاد عمل له في «شركة الترابة».

— ألم يَعُدْ جارَ أهلك؟

— لا، لأنه تنازل عن بيته لأخيه الوحيد الذي كان يستعد للزواج.

— هكذا اختفت دعد مثل «فص ملح»، كما تقولون.

— هي اختفت، لا أخبارها.

رفيقي نبيه أخبرني، بعد سنوات، أنها كانت تعمل في مطعم على البحر قرب بلدة «الهري»، وأنها صبغت شعرها، وأنها باتت تحسن التلفظ ببعض كلمات، وأنها اعتذرت عن مشاركته الأكل، لأن رب العمل يمنعها عن ذلك.

— لعله دعاها إلى أكثر من ذلك؟

— ربما. كان نبيه يتفنن في رواية الحكايات، مثل جده. وهو الذي كان يعلونا فوق هذه الفسحة، ويعيد على مسامعنا ما كان قد سمعه منه.

— أكان صادقاً في خبره عن دعد؟

— ذهبتُ بنفسي إلى «الهري»، فلم أجد أثراً لها، ولا للمطعم.

— وفي «شكا»؟

— لم أذهب إليها.

— ألا تزال تحن إليها؟

— كان في ودي أن تسمعني بعد وقت، أن أشرح لها...

— أنا قرأتُ ما كتبتَه عنها.

— أأنا كتبته؟ عمّ تتكلم؟

— أقصد تلك الورقتين المتصلتين اللتين وجدتهما بين أوراقك الخاصة.

— عمّ تتحدث؟ ألا يكون هو الذي كتبها؟

— تتحدث فيهما عن هند لا عن دعد، وتسميها «هند البرصا، هند الخرسا»: أليس كذلك؟

— ربما. أنا نسيت واقعاً، أو اختلطت الصور في ذهني...

— ... أو فوق السطور. متى كنتَ صادقاً؟

— ماذا قلتُ عن هند؟

— سأقرأه عليك.

— كيف ذلك؟

— نقلتهما إلى حاسوبي المحمول. هذا ما سبق أن كتبتَ:

«دوماً رافقني ميل غريزي إلى حياة سرية ترافق حياتي العلنية، إلى مناخات وضيعة تعايش مناخاتي المنزهة والطهرانية. في الطفولة، سواء في القرية أو في المدينة، كنت أبحث دوماً عن البنت، عن اللعب الجنسي معها: كنت قاسياً. ما كنت ألاعبهن بقدر ما أغتصبهن. هند في القرية لم تكن تمانعني، كانت تستسلم بخبث لرغباتي. حتى لو اعترضتْ، لم يكن في استطاعتها التعبير: هند كانت خرساء. كنت أُوقفها، وظهرها مسند إلى الحائط، وأرفع ثوبها إلى أعلى، وأروح أدفعها صوب الحائط دفعاً. هكذا من دون أن أُقبِّلها، من دون أن أفعل أي شيء آخر، سوى هذه الحركة الإيقاعية النزقة. كان يكفي، عند المرور أمام بيتهم القريب من بيتنا، أن أغمزها: غمزة العين كانت تكفي لكي تتبعني، لكي تخضع لمشيئتي، لكي تتصرف مثل عشيقة مجربة. بخفة وقدرة توصلت إلى أن أغمزها، أي من دون خوف. وبمهارة كانت تتسلل، وتلحق بي إلى تحت السنديانة، أو إلى خلف غرفة محرك الماء الكهربائي. هل كان بريئاً أن تجري ألاعيبي هذه خلف هذه الغرفة بعينها، التي كانت تحول الكهرباء وترسلها إلى الدير القريب، الذي كان ينعم بأنوارها

وحده من دون بيوتنا؟ هند لم تكن تمانع أبداً. تستسلم لي وتفرح. كنت أتحقق من ذلك في عينيها الرخيتين، في انشداد جسدها... اعتادت علي، واعتدت عليها. لم تكن تمانعني، لا لأنها لا تستطيع الاعتراض أو الشكوى عليّ، بل لأنها كانت تلتذ معي. كانت تأتي من دون تأخير، وتستجيب مرتاحة، لا طائعة. لم تكن «مجنونة القرية»، بل كانت غريبة عن غيرها من البنات. كما لو أن لون شعرها لها من دون غيرها، لتمييزها عنهن: إنها هند البرصاء. لم يكن غريباً، إذن، أن تركض متلهفة لأي نداء، من دون أن أوجه إليها أي كلمة. كانت محتقرة ومبعدة، عشيقتي السرية. كانت تتفرج علينا، ونحن نلعب، وتراقبنا من مصطبتها، ونحن نتوجه في نزهة إلى النهر. كأنها من خلف زجاج خرسها تكتفي بالنظر فقط، إلى عالمنا، إلى العالم».

— متى كتبتَ ذلك؟

— لا أذكر. ربما في الصيف الذي سبق دخولي إلى الجامعة.

— لماذا؟

— لأنني انصرفتُ في ذلك الصيف إلى المجيء إلى تلك الصخرة مع دفتر صغير.

— أكنتَ تكتب؟

— تمارين ليس إلا، قبل أن تنقطع صلتي به.

— متى حصل الانقطاع؟

— في الصيف التالي، بعد أن نشر في «الملحق» الأدبي لجريدة «النهار» قصيدة بعنوان: «وأينعت أزهارنا على القحط».

— إلا أنني لم أعثر عليها في أي من كتبه.

— لعله نسيها، لا أنا.

— أتملك نسخة عنها؟

— زميلي محمود تدبرها لي، بعد أن عاد إلى ميكروفيلم الجريدة.

— أتمانع في أن أضمها إلى هذه الأوراق؟

— إذا شئت.

— أتريد أن أقرأها على مسامعك؟

— لا، لأنني أحفظها عن ظهر قلب.

— ألك أن تتلوها على مسامعي؟

— ...

...

— أعندها انطلقت الرصاصة؟

— ...

— أكرر سؤالي: أعندها انطلقت الرصاصة؟

— أُنبهُك إلى أنك تخلّ بالاتفاق. ألم نتفق على تأجيل هذا الحديث؟

— بلى. لكن سياق الكلام استدعى هذا السؤال.

— ...

— وماذا عن صديقة الطفولة؟ من هي فعلاً؟ أهي دعد أم هند؟

— لا هذه ولا تلك، أو هذه وتلك، أو...

— لا حاجة للعب مزيد. هل أنت مرتاح، الآن؟

— أجيبك في مرة أخرى.

— ولكن لماذا انقطعت عنه؟

— أجيبك في مرة أخرى.

— لماذا؟

— لأن تقليب الأوراق يفتح معابر الهواء، كما في هذا الوادي، في أوقات الشدة والعواصف.

...

— لماذا لا نزور البيت؟

— لا حاجة إلى ذلك.

— في الأمر ما يؤلم، على ما يبدو.

— لا. أحتاج إلى التمشي بالأحرى، كما نفعل فوق هذه الدروب.

— غير أنني أنساق وراءك من دون أن أعلم سبيلنا، ولا الوجهة التي تقودني إليها.

— وما حاجتك لأن تعلم؟

— لكي يكون للتكالم بيننا وجهة.

— ألا يشبه هذه الدروبَ المتعرجة والمتداخلة ويوافقها؟

— أهي جميلة في حد ذاتها أم موحية وتشير إلى غيرها؟

— هي أجمل ما أحتفظُ به من هذه القرية. هذا أجمل ما كنت أفعله وحدي، أو مع بعض الصبية، إذ كنا نمشي من دون مقصد. هكذا لمتعة التنزه وحدها. كنا نتوقف أحياناً لقطف ثمرة، أو للإمساك بغصن يابس، مثل عصا الراعي أو الناطور أو المطران، أو لرمي أحجار فوق صفحات المياه، فوق «الغبابيط» كما نسميها، بما يتيح للحجر أن ينط أكثر من نطة قبل أن يغطس في قاع النهر.

— مثل آدم في الجنة، أو طرزان في الغابة.

— كنا نشعر بمجرد المشي أننا نكبر، أننا نقترب من عمر الرشد، من تدبر مصائر ووجهات لنا ولما يحيط بنا.

— إلا أنها دروب مرسومة، كما ألاحظ.

— كانت دروب «المكارية».

— ماذا يعني؟

— النَّقَلَة على دوابهم بين القرية ومدن الساحل.

— ولكن ألم تكن هناك ساحة تلتقون فيها، ومع غيركم؟

— لا ساحة للقرية منذ زمن بعيد.

هناك شجرة سنديان ترقى إلى مئات السنين، وتتوسط كتلة صخرية هائلة، يعتقد البعض بأنها كانت الساحة... هذا ما قاله لي أحد الرهبان.

— أين تقع؟

— في الجهة العليا من القرية، على مقربة من الدير...

كانوا يلتقون حولها فيما مضى للراحة، بعد عملهم في الأراضي الزراعية المحيطة بها، أو للسمر، أو لتمضية سهرات على ضوء القمر، أو كانوا يُجْرون فوق قاعدتها الصخرية مباريات فيما بينهم، قبل عرس أحد الشبان...

— أنت ورفاقك انقطعتم عنها، إذن؟

— لا، لم تكن ساحة للقرية منذ وقت غير معلوم منا. لم نعرفها سوى مكان بعيد، نلجأ إليه في بعض الأحوال والمناسبات. بات الوصول إلى السنديانة زيارة مقصودة، نقوم بها كما للمتحف.

— لم تعد، إذن، مقصداً طبيعياً، تلقائياً.

— نعم. لهذا كانت لنا مسارات وسبل أخرى، غير مألوفة، نكتشفها ونعتمدها بنوع من التوافق بيننا... وذلك إلى اليوم الذي جرى فيه شق الطريق الإسفلتية التي ربطت القرية بالساحل.

— ماذا جرى؟

— قام عند أول الطريق دكان: باتت سيارات الأجرة أو الخصوصية تتوقف أو تبدأ طريقها منه؛ بل بات الأهالي ينتظرون السائقين أمامه، قبل موعد رحيلهم المعروف، أو قبل وصولهم المتوقع، بعد أن يكونوا قد كلفوهم بطلبات معينة للإتيان بها من المدينة.

— أينه، هذا الدكان؟

— لا يزال موجوداً، لكنه كان مقفلاً عند وصولنا هذا الصباح. وهو يقع على مبعدة أمتار من الموضع الذي أوقفنا فيه السيارة.

— ألنا أن نمر به؟

— إن شئت، إلا أننا الآن بعيدون عنه. ستتعرف عليه — إذا شئتَ — بعد العودة من الوادي.

— إلا أنها طريق مرور سيارات، ولا تفضي على أي فسحة لكي تصير ساحة! لعلها كانت ردهة مفتوحة للانتظار.

— هذا ما تدبره المنتظرون، ولا سيما ربات البيوت، في مقابل الدكان، تحت شجرة الجوز الظليلة. أما نحن، فقد تدبرنا موضعاً آخر: بنى حبيب، صاحب الدكان، إلى جانب المحل، درجاً يفضي إلى السطح، وكانت له عدة درجات تزيد على العشر، ويشرف من زاوية جانبية على الحركة الجارية.

إنه «درج حبيب»: هكذا راجت تسميته سريعاً، وزاد رواده يوماً بعد يوم.

— بودّي أن أراه.

— ستراه. لا شيء يدعو إلى العجلة، ولا إلى الفرجة.

كفاءته الكتابية.

— شكراً على هذا الدرس. أيمكن استكمال النزهة؟

— إن شئتَ. أين تريد أن تمضي؟

— إلى أين تريد أن تقودني؟

— ماذا تنوي معرفته بعد؟

— هل يمكن زيارة بيتك؟

— تغير البيت عما كان كان عليه عند قيام «درج حبيب».

— ماذا أصابه؟

— بات بيت باطون، حتى أنني شاركت، أختي وأنا، في تجميع الحجارة لاستعمالها في بناء الحيطان...

كنا فرحَين، يومها، إذ تخلصنا من الحيطان الترابية، الوسخة.

— وماذا عن أشيائك الخاصة فيه، الحميمة؟

— تغيرت الحيطان، لا أثاث البيت: انتقلتْ أسِرَّتنا وحوائجنا وخزانة أمي، التي أهداها لها والدها عند زواجها، و«النملية»...

— ... ما «النملية»؟

— خزانة خشبية، عالية عن الأرض، لحفظ المآكل، ولا سيما اللحم الطازج.

— وماذا عن ألعابك؟

— لم يكن هناك شيء يخصني لكي أحتفظ به. كان لي بضع لعب يدوية أخفيها في عالي السنديانة التي تحمل عريشة العنب.

— ما هي؟

— علبة ثقاب لحبس بعض الحشرات، وملاقط خشبية للغسيل تصلح لألعاب مختلفة، وشرائح من كاوتشوك دواليب السيارات، وسدادات معدنية مسنونة، وصور فوتوغرافية من مجلتي «الشبكة» و«الموعد»، وغيرها مما كنت أنقله عند الضرورة.

— إلى أين كنت تنقلها؟

— إلى حيث نلعب، إذ كنا نتخير أمكنة لذلك، إلى جانب النهر خصوصاً، كما في الفسحة التي جلسنا فيها قبل قليل.

— ولمن كانت الصور؟

— لسعاد حسني وصباح وطروب وبرلنتي عبد الحميد ولممثلة أجنبية أذكر اسمها الأول: روزانا...

— هل كانت الصور متوافرة في «دكان حبيب»؟

— لا، كنت آتي بها من العاصمة، من عند الحلاق هاروت.

— لماذا لا تكتب عنها؟

— أحن إليها طبعاً، إلى ما كانت تحدثه فيَّ من توتر، عند استباق أخبارها أو لدى متابعتها بنفسي، وحدي، من دون المجلة... إلا أن هذا التوتر قد لا يعني شيئاً لغيري.

— إلى ماذا تحنّ أيضاً؟

— إلى ذلك الهواء الذي كان يسبقني إلى خطوتي، وإليه إذ كان يداعب جبيني لما أستلقي في ظلال شجرة الحور، وإليه إذ كان يحملني عبر المسافات مثل طائر...

— أكنتَ تلهو أم تهرب؟

— ماذا تريد أن تقول؟

— لا تتحدث عن البيت، بل عن فسحات النهر؛ ولا عن أهلك بل عن دعد وهند ونبيه وهاروت؛ ولا عما يجري في البيت بل عما يحدث لك في تدافعات الهواء... في هذا كله ما يثير أسئلة أكيدة. ألا ترى ذلك؟

— لم يكن في البيت متسع لكي أجد فيه مكاناً.

— ألهذا كنتَ لا تتوانى عن الهرب؟

— كانت العطلة.

— وهي غير التربية اليومية.

— وغير التربية المدرسية.

— أنت تحن إلى هذا المكان لأنك ذهبتَ بعيداً عنه. وأنت تحن إليه لأنك تعتز بما آلت إليه خطواتك خارج هذا المكان. لماذا تتفقد خطواتك اللاهية ولا تتفقد مكان الأهل؟ أما تعلمتَ في هذه القرية؟

— أبداً. تلقيتُ فيها ذات صيف دروساً في العربية من أحد الرهبان.

— ألا تزال تذكرها؟

— طبعاَ، إذ تنبه الراهب إلى أنني لا أحسن نطق حرف الضاد. هذا ما تنبهتُ إليه، بعد سنوات، ذات صباح، في جبشيت، في بيت السيد هاني فحص، إذ تحققتُ من أن ابنته قالت له، عند سؤاله لها عما إذا كانت قد أكلت: «نعم، أكلت بيظ». لفظت الضاد كما لو أنها حرف الظاء. وهو ما شرحَه لي، ولاحظتُ وجوده بعد سنوات في كتب بعض العراقيين الذين يقلبون الحرفين أحياناً في بعض الكلمات.

— وصلنا إلى جبشيت، وإلى العراق، قبل أن نصل إلى بيتك.

— ألا تريد أن ترى «درج حبيب»؟

— بلى، إن جلسنا عليه.

— هيا بنا، ولكن بشرط.

— ما هو؟

— إن كان الدكان مفتوحاً، فسنرى إلى الدرج من بعيد.

— لماذا الخشية؟

لن يتعرف إليك أحد.

— أموافق؟

— نعم.

— هيا بنا، ومن دون آلة التسجيل.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لماذا تقودني عبر هذه الأراضي المهملة؟

— لم تكن كذلك. كنا نفحص هذه الكروم قبل غيرها لقطف ثمرات التين الأولى، ولأكل العنب وغيره.

— لماذا؟

— ألا ترى أنها معرَّضة أكثر من القرية نفسها للشمس، وطوال فترة مديدة في النهار؟

— هل يمكن أن نرتاح قليلاً؟

— سنصل بعد قليل إلى مكان ظليل، إلى المحبسة.

— لكنك حدثتني عن الوصول إلى دكان.

— هو في طريقنا بعد المحبسة، في الجهة الأخرى.

— هل يمكن التوقف ولو قليلاً؟

هذه الأرض الرملية تعرِّضني في كل خطوة إلى انزلاقات أكيدة. ألا تخشى ذلك؟

— لا، يبدو أن للأقدام ذاكرة ولياقات لا تلبث أن تستعيدها... أتريد التوقف فعلاً؟

— ماذا تفضل؟

— لا، لنكمل المسير، فأنا لا أجد شجرة نستظلها قبل الوصول إلى تلك الصنوبرات العالية.

— ذكرتَ المحبسة: أنتوجه إليها؟

— قرأتُ عن أحد أقربائي، الحبيس مرقص، أنه كان ناسكاً فيها.

— ألم تعرفه؟

— مات قبل مولدي بسنوات بعيدة. ولم يعرفه أحد أقاربي لكي يروي عنه حكايات وأخباراً. كل ما عرفتُه عنه عدتُ إليه في أحد الكتب الرهبانية عن المحابس والحبساء.

— ألكَ صلة بالمحبسة عموماً؟ أتغريك حياة الحبساء؟

— تتنازعني مشاعر متضاربة: أستسيغ ملذات الحياة كفاية لكي لا أقوى على الابتعاد عنها، كما تحلو لي أحياناً متعة الانقطاع والانصراف إلى الصمت.

— محبسة فردية، إذا جاز القول، لا لعبادة الله.

— استوقَفَني في حياة هؤلاء أنهم كانوا رهباناً، أي في العزلة، ومع ذلك طلبوا عزلة مضاعفة، مزيدة، أي في المحبسة.

ألا ترى، من هنا، إلى الدير؟ لا يكاد يبعد مئتي متر، والحبيس يقع نظره عليه إذا شاء، بمجرد خروجه من المحبسة.

— فعلاً.

— ومع ذلك أصرَّ قريبي على الابتعاد عن جمهور الدير... أصر، على الرغم من أن حياة الرهبان هي أقرب إلى حياة الحبساء منها إلى حياة الكهنة، الذين يعيشون اعتيادياً بين الناس، في الرعية، بين المؤمنين.

— إذن؟

— لعل الحبيس كان يطلب القطيعة التامة، والانصراف المحض إلى العبادة. لعله ما كان يخرج حتى إلى حيث سنصل بعد خطوات، وما كان يمتع نظره من دون شك بمرأى هذه المناظر الساحرة، المفضية على الوادي.

— أتقوى أنتَ على ذلك؟

— لا. إلا أنني طلبتُ في أكثر من مرة، في مرات كثيرة، مثلَ هذا الانصراف إلى نفْسي.

— لا أفهم.

— أتعرف العبارة المصرية التي يقولها مدخن الحشيشة لزميله داعياً إياه إلى مشاركته التدخين؟

— لا.

— يقول له: «ما تخُش على نفسك بَئا».

— ماذا تعني؟

— حان الوقت لكي «تدخل»، لكي تنصرف، إلى نفسك.

— لم أفهم شيئاً من هذا الشرح.

— ساوَرَني الاعتقاد طويلاً — حتى الآن — بأنني أعيش خارج نفسي، متعلقاً بغيري؛ بل أن غيري هو الذي يُملي عليَّ ما يجب فعله.

— ألهذا كنتَ تحادث نفسك ما أن تخرج من البيت؟ ألهذا كنت تهوى الهرب إلى الكرم، والبقاء وحيداً فوق الصخرة؟ أكنت تتهيأ لأن تكون خطيباً؟

— لا. كان في ودي أن «أصل» إلى نفسي، أن «أدخل» إليها، كما إلى بيت مؤثث وأليف.

— أوَصَلْت؟

— هذا ما تنبهتُ له مساحياً، إذا جاز القول، عندما حل في القرية أحد الأجانب.

رأيته ذات يوم أمام الخيمة، التي نصبَها إلى جانب السنديانة العتيقة، وهو منصرف إلى قراءة كتابه، مثل راهب إلى كتاب «الشحيمة»: لا يبلبله شيء؛ حتى أنني شعرت يومها بأنني سأبدو معتدياً عليه إن اقتربت منه، إن أوقفته عن القراءة، إن ألقيت بنظري على سطور كتابه.

— له حصانة، له مناعة...

— له مساحة كيانية، أشبه بدولة ناجزة الاستقلال، وقادرة على حمايته.

— أنَعِمْتَ أنتَ بدورك بهذه السيادة؟

— ما كنتُ أشعر بها في البيت، إلا في لحظات الشرود. ولا في الصف...

— غير أنني أجدك شديد التعلق بالدير، بالرهبان، بالحبساء. أكانوا مثالاً لك في الحياة؟ أفي عائلتك أكثر من راهب؟

— نعم.

— وبين إخوتك؟

— فشلت المحاولات كلها.

مع أخي ضاهر، أولاً...

— ... ثم مع من؟

— ...

— معكَ؟

— أيمكن محو ما قلتُه للتو؟

— ...

— ما كان في ودي الكشف عن هذا الجانب.

— لماذا؟ أأنتَ تضايقت كثيراً من إدخالك إلى الدير؟

— أُدخلتُ فعلاً إليه، أي رغماً عني.

— متى حدث ذلك؟

— لنسترحْ قليلاً. ألا تريد أن نتفقد المحبسة؟

— طبعاً. لكنني لن أوقف آلة التسجيل. متى دخلتَ إلى الدير؟

— لندخل إلى المحبسة الآن.

— كيف تعرف أنها محبسة؟ أزرتَها من قبل؟

— نعم. إلا أنها تغيرت، بعد أن جرى التنقيب في بعض جوانبها، وتكشف البناء الفوقي — كما ترى — عن بناء سفلي...

ربما كانت محبسة في عهد، لا في عهد آخر، سابق أو لاحق.

— أهو بناء أقدم؟

— طبعاً. ألا تنتبه إلى أن الحجارة التي بُني بها البناء العلوي — وهو كنيسة، كما ترى — منحوتة، مدقوقة، جرى العمل عليها بأناة إزميل النحات، فيما تبدو الحجارة السفلية مقطعة وحسب، ومنتزعة من مقالعها من دون أي معالجة؟

— أين كان يعيش قريبك؟

— لا أعرف، فقد اختلطت المواقع والمباني والوظائف في الموقع نفسه.

— مثل حديثك معي...

لماذا تأتي بي إلى هذه الأمكنة الخالية، الباقية مثل حكاية مبعثرة ومقطعة؟

— من هنا يمكن أن تكون على مرأى من الدير، وتشرف كذلك على الوادي، المفضي على الأفق.

— أي أفق؟ أين الأفق؟

— هناك، في منتهى التقاء الجبلين، في امتداد الوادي...

— أفق احتمالي، إذ لا أجد غير الجبل أفقاً!

— ...

— لا أجد سوى القسوة في هذا كله، ولا أفكر في الحياة إلا مثل من يراهن على وجود المياه تحت هذه الصخور المسنونة.

— أسمعتَ خرير الماء؟

— لا.

— بلى.

— أهناك نبع قريب؟

— طبعاً. تعال... ماؤه شديد العذوبة، ويتفجر من دون شك في جوف هذه الهضاب الصخرية.

— أينه؟

— يقع تحت شجرة الحور تلك.

— هل أنت أكيد من وجوده؟ أنا لا أسمع شيئاً.

— نعم. لطالما شربنا منه، وغسلنا وجوهنا فيه.

— إلا أنني لا أجد سوى هذا القسطل البلاستيكي النازل...

— اصبرْ قليلاً. سنصل.

— صبرتُ. صبرت. صبرت...

أأنت أكيد من موقع النبع؟ فأنا لا أجد سوى قسطل آخر.

— فعلاً. لعلي أخطأتُ في تقدير المكان، فأنا ما أتيت إلى هنا منذ سنوات بعيدة.

— لعل أناساً احتاجوا إلى المياه، وفي جهة أخرى من القرية...

— ربما.

— كما فعل الرهبان غير مرة بهذه المحبسة، فهي قد لا تكون واحدة، بل عديدة ومتداخلة.

— فعلاً، فقدَ المكان سحره السابق...

— ... والحاجة إليه.

— لنسترحْ قليلاً.

— لنعدْ إلى حكايتك مع الدير: متى كان ذلك؟

— كنتُ في الثالثة عشرة من عمري. هذا ما دعاني إليه والدي. قال لي ذات يوم — وكانت أمي إلى جانبه، ولكن من دون أن تتكلم —: «إنك تصلح للرهبنة؛ لعلها دعوتك».

— ماذا تعني «الدعوة»؟

— نداء باطني، أي إلهي، للدخول إلى الرهبنة، على أنك قد لا تنتبه إليه، بل الآخرون.

— ألَبَّيْتَ «الدعوة»؟

— قلتُ لأبي: «لم أشعر بهذه الدعوة». فأجابني: «ادخلْ إلى الدير، ثم تحققْ فيه من حقيقة الدعوة، التي أراها فيك، أنا وأمك».

— ماذا كان يقصد من هذا الكلام؟

— كنت أبدو لأهلي عاقلاً... وتعززَ لديهم هذا الاعتقاد إثر نجاحاتي المدرسية.

— أكنت ناجحاً حقاً؟

— كنتُ أنجح ممن سبقني إلى المدرسة ولم يبقَ فيها أساساً من إخوتي الذكور.

— أكنتَ فعلاً عاقلاً؟

— لا أذكر تماماً ما كنتُ عليه. يمكنني قول الشيء وعكسه. لعلي كنتُ في البيت عاقلاً. هذا ما يظهر لي، على أي حال، في صورة يتيمة، في السابعة أو الثامنة من عمري.

— أينها؟

— عند أخي الأكبر.

— وماذا فيها؟

— لعلها صورة ملتقطة أثناء خطوبة أختي الكبرى: خمس بنات إلى جانب أمي وأربعة ذكور إلى جانب أبي.

— وأنتَ؟

— كنت أقف أمام والدي.

— أكنتَ الصغير؟

— لا، ما قبل الأخير.

— لماذا أنتَ؟

— لا أعرف. ما أراه في الصورة هو أن والدي وضع يديه على كتفي.

— أكان يعتمد عليك؟

— لا أعرف ما إذا انقدت إلى يديه، إلى حمايته، أم هو الذي دعاني إليه.

— لماذا تتحدث عن حماية؟

— لأن في عيني خوفاً، أو توجساً ما.

— ماذا كان يخيفك؟

— لعلها الكاميرا، ولأول مرة.

— ألهذا الحد؟

— لا أعرف. لكنني كنت مرتبكاً في الصورة، بلباس منسق وشعر مهندم.

— أمَضيتَ إلى الدير، إذن؟

— نعم، لكنني كنت كسيراَ، أشبه باليتيم...

هذه المفاجأة كانت صاعقة لدرجة أنني لم أعرْ انتباهاً إلى خبر والدي، إذ أخطرني بأنه سيقودني، في اليوم التالي، إلى محل الملبوسات في «ساحة البرج» لشراء ملابس جديدة.

كان يقودني مرة في العام، قبل عيد الميلاد، إلى محل قريب من الساحة لشراء بدلة العيد. كنتُ أنتظر سنوياً هذه الزيارة، هذه الرحلة البعيدة عن نطاق الأمتار القليلة التي كان لي أن أدرس وأنام وأعيش فيها. إلا أنني، في هذه المرة، كنت أتقدم راجفاً في بهو غامض ومعتم، ووحدي خصوصاً. وما إن استيقظتُ في اليوم التالي، تركتُ البيت وأبلغتُ غاندي بما يحدث لي، على أنني سأتوجه — على ما قلتُ له — إلى مدرسة داخلية.

— أأخفيتَ عليه الأمر؟

— نعم. كنت أخشى من تهكم الصبية.

— ولماذا الحديث عن «ساحة البرج»؟

— في البوسطة الصغيرة التي كانت تُقلّنا عادة إلى وسط البلد، كنت أقف على الشباك، وأدع الهواء يلامس شعري، فيما كنت أمعن النظر في الهيئات والأمكنة التي كانت تجتازها البوسطة، كأنني أطالع رحلة مصورة في كتاب، أو «المناظر» قبل بداية الفيلم، في «سينما لوكس» أو «ريفييرا»، القريبتين من بيت أهلي. يومها، وقفتُ الوقفة عينها، إلا أنني كنت زائغ النظر، حتى أنني ما انتبهتُ إلى أن والدي لم يشترِ لي بدلة، بل مريولين، و«غيارات» عديدة، تفننتْ أمي في تطريز اسمي عليها.

— أكانت قطيعة مؤلمة؟

— كان لها هذا الطعم على الرغم من العناية... المفاجئة التي أحاطوني بها.

— ولماذا هي مفاجئة؟

— بات والدي، بعد الرحلة إلى «ساحة البرج»، يتفقدني بعد عودته إلى البيت، ويُرَبِّتُ كتفي بمجرد وقوعه علي... وباتت والدتي تعرض محتويات حقيبتي على جاراتها، كما لو أنها تهيئ «جهاز عرس» إحدى أخواتي...

«لعلكم تتخلصون مني، يا أمي؟»، قلت لها. «لا، يا ابني. بل على العكس: والدك يوفر لك مستقبلاً مشرقاً، على ما أظن».

— ماذا عَنَتْ بالمستقبل المشرق؟

— كانوا — على ما عرفتُ من تاريخ عائلتي وغيرها — يعدون البكر للدير أو للكهنوت، فيما يعدون البقية للعمل في الحقول.

— تغيرت الأيام، إذن!

— أو عاشت عائلتي أياماً أو عهوداً مختلفة بين أبنائها العديدين.

— ومتى كان الخروج إلى الدير؟

— دامت الاحتفالات أياماً وأياماً قبل أن يقودني والدي مع حقيبتي — الأولى طبعاً — إلى المدرسة التي كانت تبعد ما يزيد على عشرين كيلومتراً عن مدينتنا، على ما قرأتُ في اللافتة المعدنية على الطريق الساحلي.

ألنا أن نمشي قليلاً؟

— إذا كان يريحك الأمر. وماذا عن حياتك الجديدة؟

— لو نؤجل الحديث.

— إلا أن الأصعب قلتَه.

— لذلك أحتاج إلى التنفس.

— لكن الطريق نازلة، كما ألاحظ.

— أحتاج إلى التنفس، إلى الاستعداد من جديد، مثل العدّاء أمام سباق مختلف.

— أكنتَ مستعداً فعلاً لمثل هذه الحياة الجديدة؟

— ما كنتُ أعرف شيئاً عنها. كانت مثل هذه الهضبة، أمامنا، جهمة، منغلقة وكتومة.

— إلى أين نتجه؟

— سنرى، المهم أن أهرب من الدير.

— أهربتَ منه؟

— لا، خرجت منه.

— كيف ذلك؟

— أتريد أن نرتقي إلى هذه الهضبة؟

— لا.

— إذن، لنسلكْ سبيلاً آخر.

— كما تريد.

...

— ها أنتَ هربتَ من الدير لتعود إليه.

— لم يكن هناك حلٌّ غير هذا.

— كان الأكل طيباً، ولم يتأخروا أبداً، أو لم يترددوا في بسط وليمة لنا، على الرغم من انقضاء وقت الغداء. أيعرفك رئيس الدير؟

— لا أعتقد، فأنا منقطع عن القرية، وهو ليس من أبنائها، على ما تحققتُ.

— ألهذا لم تجد حرجاً في قبول الدعوة؟

— عن أي دعوة تتحدث؟

— عن دعوة استقبالنا فقط.

— هو ينتظرنا في مكتبه: أنبقى إلى جانبه بعض الوقت أم نمضي؟

— لنشكره على الأقل.

...

— شكراً، حضرة الرئيس. نحن على عجل، لا يزال أمامنا طريق طويل.

— القهوة جاهزة، بأي حال. أأنتما في عمل أم في نزهة؟

— في عمل.

— ما هو؟

— التحقيق في حياة أحدهم.

— يفاجئني اهتمامك هذا؟

— لماذا؟

— ما كنتُ لأتوقعه منك.

— ومن أين لك أن تعرف اهتماماتي؟

— ما أعرفه...

— ... أتعرفني؟

— أنسيتَني؟ لعلها اللحية... أنا منير عون، المعروف رهبانياً باسم الراهب إنطانيوس عون.

— لا يعني لي الاسم شيئاً.

— أنتَ محق. أنت لا تعرفني، وأنا لا أعرفك.

— ماذا يعني هذا؟

— هذا يعني أنني سمعتُ عنك... وبعد طردك من الدير.

— لم أُطرد، أنا تركتُ.

— سامحني. هذا ما قالوه عنك.

— هذه أقاويل وشائعات. أنا بدوري سمعتها عن طالبَين — راهبين بعد أيام قليلة على وصولي.

— سامِحاني، أنا لا أفهم شيئاً: عمّ تتحدثان؟ لماذا طُرد؟

— لم أُطرَد.

— قيل عنك إنك طُردتَ لأسباب أخلاقية.

— هذا تزوير. هذا افتراء.

يؤسفني قول هذا. أنا أعتذر عما سقتُه، فهي أقاويل وشائعات تروج في أمكنة ذكورية ومغلقة.

شكراً على استقبالك.

— لم أنهِ قهوتي بعد.

— سامحني. سؤال أخير: أهناك صلة بينكما غير صلة العمل؟

— لا، ما كنتُ أعرفه قبل هذا المشروع.

— بالإذن منكما، سأخرج إلى ساحة الدير.

...

— سامِحني، حضرة الأب الرئيس، ألي أن أعرف الشائعة التي طاولته؟

— لا، هي شائعة مشينة، ولا يمكنني قولها لك، وفي غيابه.

— ألها صلة بمغادرته، أو بهربه بالأحرى من الدير؟

— لم يهرب، على ما أظن.

— أكان له خروج مرتب، إذن؟

— يمكنك قول ذلك.

— لماذا سألت عن صلتنا بعضنا ببعض؟

— مجرد سؤال.

— شكراً على كل شيء.

...

— في الأمر ما أربككَ، أليس كذلك؟

— لا، بل أغضبني. أتهرَّبُ من هذه المناخات... لطالما ابتعدتُ عنها...

— ماذا تعني؟

— مناخات ثرثرة وأقاويل، يعشش فيها عنكبوت ورتيلاء وعقارب في غالب الأحيان.

— لماذا؟

— لكي يتخفَّف البعض من ثقل الصمت ورتابة التأمل.

— إلا أنه تحدثَ — وهو راهب جليل، على ما يبدو — عن حكاية أخلاقية مشينة.

— هذا ما قالوه له، وعني.

— أكنتَ سمعت بذلك سابقاً؟

— لا.

— إلى ماذا أراد التلميح؟

— لا أعرف.

— كيف تركتَ الدير؟ لماذا تركتَه؟ ألم تهرب منه؟

— ألا يمكن أن تنتظر قليلاً حتى بلوغنا البيت؟

— إن شئتَ. أسيكون الأمر أكثر راحة لك؟ أم أن عليك أن تتدبر الأجوبة؟

— لو تعرف مقدار رغبتي في أن أقول.

— حقاً؟

— طبعاَ، لأن في ما عشتُ ما نغَّص حياتي، ما أوجعني مديداَ، طويلاً، حتى اليوم.

أنا الذي يحتاج إلى الكلام، لعلك نسيتَ...

— حتى لو كان في الحكاية ما يشين؟

— لا شيء يشين ما دام يصدر أو يُعَبِّر عن وجع. فكيف عن إكراهات!

— أتَركتَ أم هربت؟

— لك أن تحسن توجيه السؤال، لا أن تتهمني.

— وماذا لو رفضتَ؟ أو زُغْتَ في الإجابة؟

— لن يخفى هذا على نباهتك، على خبرتك.

— أسبقَ خروجَك من الدير أقاويلٌ وثرثرات؟

— نعم.

— ممّ نشأتْ؟

— من سوء تصرفي.

— كيف ذلك؟

— خطوات قليلة، ونصل إلى البيت. أما عاد يعنيكَ البيت الذي طالما رغبتَ في المجيء إليه؟

— صحيح. أيسكنُه أحد في هذا الوقت؟

— بيتي لي، لا يقاسمني فيه أحد.

— وإخوتك؟

— يسكن بعضهم في الطابق العلوي، وأنا في القبو.

لا يأتون إلى بيوتهم إلا في النادر، في بعض أيام الصيف.

— وأنت؟

— أترددُ إليه أكثر منهم.

...

— لبيتك شرفة واسعة. أينه من القبو!

— كان قبوَ البيت القديم، قبل ترميمه وتوسيعه.

— ولكن يبدو قديماً على الرغم من تحسينه.

— صحيح. إنه بيت جدي لوالدي.

— أعشتَ فيه؟ أوُلدتَ فيه؟

— لا.

— أين نجلس؟

— ساعدني بالإتيان بطاولة وكراس إلى الشرفة.

— أسيساعدُك هذا المكان المكشوف على الاعتراف؟

— أنا لم أقترف أي ذنب. أنا عشت وحسب، وفي ظروف قاسية.

— يثيرني هذا الكلام... كما لو أنني أمام قبو مغلق من الأسرار الدفينة.

— لنضع الطاولة هنا.

— أفي مواجهة الجبل؟

— لا. أضع الكرسي عادةً في زاوية تجعلني أزلق بنظري عبر الوادي، ما يثيرني وأخشاه عند الغروب.

— شعور مضطرب؟

— تماماً. فأنا أتحقق في جلستي هذه من أن الأيام تنقضي، بخلاف ما أراه، هنا، من سلوكات وكلمات توحي لي بأننا لا نزال في يوم سابق، مستديم.

— وممّ تخشى؟

— من خفوت الضوء وراء الجبل، كما لو أن يداً خارجية، غير منظورة على أي حال، تسحب بساط العتمة فوقنا، فتحيل بيوتَنا إلى جحور نلتجئ إليها، في ما يشبه الحصار المطبق علينا، والذي يضعنا أمام احتمالات وشيكة، داهمة.

— قبل هجوم؟

— أشعر بالانقباض تماماً، على أنني لن أقوى أبداً على الخلاص مما يهددنا من الهضاب، التي تعلونا مثل سور طبيعي.

— من أين يتأتى هذا الشعور؟ أمِن تجربة؟ أمن أخبار قديمة؟

— وردتْ في الكتب أخبار وحسب عن الدير والمحبسة؛ كما قرأتُ أخباراً مقتضبة عن عمليات «خراب» أحدثَها جنود عثمانيون، أو عن «غزوات»

محلية، في الفسحات الزراعية التي تنبسط وراء الدير...

— وماذا عن القرية نفسها؟

— أظنها عاشت كما لو أن أخطاراً تدهمها في أي وقت.

— أراك تصل شعوراً نفسياً، ناشئاً ربما، بمخاوف بعيدة أو متخيلة! أأنت متجذر إلى هذا الحد في هذا البيت؟

— لا أخفيكَ أنني تساءلتُ، عند ترميمه، عن سبب بنائه، هو وغيره من بيوت أقاربي — التي تلقاها من جهة الشمال، كما يمكنك أن ترى — جنب الجبل.

— وإلى ماذا توصلتَ؟

— إلى أنهم كانوا يستَغْنون بذلك عن جدار خلفي للبيت، على الأقل من إحدى نواحيه؛ كما كانوا يحمونه من الريح، من المطر، من الثلج، من أي خطر وشيك.

— لكن هذه التدابير مناخية، صحية، لا عسكرية، وتحققتُ — أنا بدوري — من وجودها في قرى تركية وإيطالية وغيرها.

— من دون شك، غير أنني أرى ذلك في الوجوه قبل البيوت...

— ماذا ترى؟

— أراه، حتى اليوم، في خشية البعض من رفع الوجه أمام من يعلوهم مكانة.

— ماذا يعني هذا؟

— يعني، في انحناءة عيونهم، اتقاءً قديماً من عنف محيق.

— أعرفتْ عائلتُك أشكالاً من المهانة؟

— ما بلغَتْني أخبار عن ذلك. بل كان بعض أفرادها يرتقون في المكانة بانتسابهم إلى سلك الكهنوت أو الرهبنة.

— مثلك؟

— مثلي.

— أما كان لعائلتك، لوالدك، طموح آخر، لك، له، لعائلتك، غير الرهبنة — وقد تغيرت الأيام؟

— هذا ما ضايَقَني من دخول الدير: كان يشدني إلى انقباضٍ أتبرمُ منه في تعابير وجهِ أخ جدي لوالدي، الراهب، كما وقفتُ عليه في صورة فوتوغرافية

له، هي الأقدم في بيتنا، مع صورة جدي نفسه. بدا لي يشدني إلى مسلكية صارمة فيما كنتُ قد ألفت مرأى التنانير المنتفخة، الدائرية...

— عمّ تتكلم؟

— الظريف أنهم كانوا يسمونها: تنانير «كلوش»، ما يعني «الجرس» بالفرنسية، وكانت ذات شكل دائري. والتنورة هذه كانت تشبه فعلاً جرس الكنيسة، وتُشد إلى خصور نحيلة.

— إلى ماذا كان يدعوك جرس الأجساد؟

— كنت أصغر من أن أسبر بَعدُ تجليات الإثارة... ما كان يثيرني كان يتمثل في خفة الحركات التي يتيحها لبسُ هذه التنورة، ولا سيما في حفلات الرقص، في صالونات البيوت، في رقص «الباسادوبليه» خصوصاً...

— ابتعَدْنا عن الدير، أليس كذلك؟

— هذا ما كنتُ أبتعد عنه واقعاً.

— أكانتْ أمك أو أخواتك يرتدين مثل هذه التنانير؟

— لا، لكنني كنت أنعم نظري فيها من على شرفة البيت، في الشارع، أو حين كانت أختي تقتادني معها إلى حفلة عند صديقتها ماري — كلير.

— الشرفة مفيدة وممتعة في حياتك، بخلاف هذه.

— المنظر، هنا، مختلف.

— والدير يقع خلفنا، لا أمام حياتك.

— فعلاً.

كان الدير يلاحق أفراد عائلتي من الذكور مثل وصية لا تحتاج إلى تدوين أو إبلاغ.

— أما كان يغري والدك — وأنتم في المدينة، لا في القرية — أن يصبح أبناؤه، أو واحد منهم على الأقل، محامياً أو موظفاً في الدولة؟

— لا أعرف. لعله نزل إلى المدينة مكرهاً، أو لوقت محدود...

— أنتَ لا تقسو عليه، في نهاية الأمر.

— لا، بل سامَحْتُه، عندما أتى لإخراجي من الدير.

— كيف ذلك؟

— اكتفيتُ، بعد اجتماعي به وحدنا، بسؤال فقط: «لماذا أتيتَ بي إلى الدير؟ ألأنك كنت مقتنعاً بأنها «دعوتي» أم لأنك توفر لي في الدير تعليماً ممتازاً ما كنتَ تقوى بإمكاناتك المتواضعة على تدبيره لي؟»، فأجابَني من دون تردد، بل بشيء من الإذعان: «للعلم، يا ابني». أستأذَنْتُه للإتيان بحقيبتي، لتوضيبها، فيما كانت موضبة منذ أمس.

ذهبتُ إلى الحمام، وبكيت. بكيت طويلاً. كان الخيط المتصل من بكائي أشبه بالنهر، الذي أمامنا، في الوادي. كان يصلني بسلسلة مترابطة من الأهل، خشية الغرق...

يومها، تصالحتُ معه.

بات والدي فعلاً.

وجدتُه يضعني في صلب حيرته، وفي صلب الحياة أيضاً.

هكذا شعرتُ بأنني راشد وقلق أمام باب الدير، الذي كان يتكشف عن خارج مبهم لا أُحسن فيه نقلَ خطواتي، ولكن بفرحة الأسير وإن لا ينتظره أحد، ولا حتى وصية تالفة.

— خروج خلاصي، إذن؟

— فعلاً، وإن كنتُ لا أقوى حينها على الطيران بعد.

— ممّ تضايقتَ في الدير؟

— أمضيتُ وقتاً طويلاً قبل أن أتصالح مع الدير نفسه.

— حدِّثْني عن الألم، لا عن المصالحة.

— الحديث عن المصالحة أسهل، لأنه يطوي الصفحات، ويجعلني أرى إلى ناحية أخرى.

— والحديث عن الألم؟

— يفتح المواجع.

— ماذا أوجعَك غير الابتعاد عن عالمك الأليف؟

— تنبهتُ قبل أسابيع قليلة على دخولي إلى المدرسة الداخلية، في نهاية الصيف، إلى أن قوة مبهمة تملكتني بمجرد أن بلغتُ ذات يوم سطح البناية مع سيرين.

غالباَ ما كانت توافيني، أو أوافيها، وحيدين، أو مع أخيها سركيس: للمحادثة، لتناقل أخبار ما قرأناه في «الشبكة» أو في «الموعد»، أو لتبادل بعض الأخبار عن المدرسة أو عن العائلة، أو للقفز فوق مربعات نكون قد رسمناها بالطبشور الأبيض فوق الباطون الرمادي. تملكتني يومها حركات عصبية، فدفعتُها دفعاً إلى الأرض، ورميتُ بجسمي فوقها، ورحتُ أضغط عليها...

— وهي؟

— جحظتْ عيناها للحظات قبل أن تدفعني عنها، وتتملص مني هاربة صوب الدرج النازل إلى بيتها.

أنا بدروي تعجبتُ لما جرى، فوقفتُ ودرت على نفسي، فوجدتُ عضوي منتصباً، بطريقة فاقعة، في بنطلوني القصير. هرعتُ سريعاً إلى الحمام، وإذا بي أرى نقطة بيضاء على طرف قضيبي. خفتُ...

— ... لماذا؟

— هذا ما كان يحدث لي للمرة الأولى. ما تجرأتُ على سؤال أمي عما أصابني. أما غاندي فضحكِ وأجابني: «ها قد أصبحتَ رجلاً». درتُ في الشارع، من دون وجهة بينة، متألماً مما أصابني.

— عن أي ألم تتحدث؟

— لا أعرف. أحتفظُ بذكرى ألم من ذلك اليوم، ولا أدري سببه. وذلك إلى اليوم الذي طالبتُ فيه أمي بإلباسي البنطلون الطويل قبل الذهاب إلى السينما مع أخواتي الثلاث. امتعضتْ أختي الصغرى لتأخيرهن عن اللحاق المبكر بالسينما، لتدبر أماكن مناسبة في «الأوركسترا»، إلا أنني لم أتزحزح عن موقفي. وهكذا كان، إلى أن وجدتْ أمي بنطلوناً مناسباً لي. يومها فقط شعرتُ بأني رجل، حتى أنني ابتسمتُ، عند دخولي إلى الصالة، لصبايا جالسات من دون أن أعرفهن.

— دخلتَ إلى الدير رجلاً، هذا ما عرفتُه. ولكن لماذا تركتَه؟

— هذا ما حلمتُ به في الأيام الأولى: أن أهرب منه. وهو ما تناسيتُه بعد شهور على ذلك. انغمستُ في أمور جديدة ومفاجئة، ما جعلني أستسيغ المقام فيه. بل تضايقتُ في السنة التالية لما طلبوا مني، ومن رفاقي، مكاتبة أهلنا، للمجيء إلينا، في يوم محددٍ، والذهاب معهم، على أن نعود إلى الدير في السابعة مساء من اليوم عينه. أُرغِمتُ على ذلك، بل ظننتُ، في البداية، أن المقصود هو تمكينُنا من إتقان كتابة الرسائل ليس إلا. وفوجئتُ في اليوم المعين بمجيء أخي ضاهر...

— بات المقام سعيداً.

— لعلي تكيفتُ... لعلي خشيت — كما العادة — من الخروج.

بات لي رفاق أكثر من السابق. وتعلمتُ رياضات ومهارات وفنوناً ما كان لي علم بوجودها مثل: الكرة الطائرة، والقفز الثلاثي، والتصوير الزيتي، واللغة اللاتينية، والسريانية، والإنكليزية، والإنشاد في جوقة فضلاً عن دروس تمهيدية في العزف على البيانو...

— لكن الصخرة اختفتْ!

— وجدتُ سلوى يومية في الانصراف إلى دفتر صغير، إلى تدوين آراء... حتى أنني طلبتُ روزنامة من المراقب العام لتنظيم هذه الكتابات والتقيد بها.

— أتقيدتَ بها؟ ألا تزال تملكُها؟

— نعم. لا قيمة لها عندي. لا أكاد أتعرف فيها حتى على خطي.

— لماذا؟

— لأنها مشبعة بكلام غيري، الذي أتلفظه بعدهم.

— وما له كلامُ غيرك حتى تنفر منه؟

— كلام شديد الأخلاقية.

— أتعتقد أنك تخلصتَ منه تماماً؟

— أتريد أن تتناول كأساً؟

— نعم، على أن نتابع.

— أحتاج لشيء من الصمت.

— كيف ذلك، والأصوات ضاجة تصلنا من كل مكان!

القرية مسكونة، بخلاف ما ظننتُ.

— يكفي بيت أو بيتان لكي تشعر بهذا الضجيج كله.

أنسيتَ أننا في الوادي؟ ألا ترى بأن البيوت ملتفة بعضها على بعض، وتحيط بها الجبال مثل الصنوج في جوق؟

— لا، لكن هذا يجعلنا نستمع إلى ما لا نشاء بالضرورة، ويجعلنا نشارك فيه رغماً عنا!

— أتظن أن في ذلكِ سبباً لخشيتي من الكلام؟

— ومن الحوار أيضاَ، أليس كذلك؟

— ...

...

— على أي درجة كنت تجلس؟

— هنا.

— لماذا؟

— هكذا أكون في مكان متوسط: أرى إلى العالي وإلى الطريق في آن، كما أستطيع الانتقال بيسر إلى السطح.

— لنجلسْ حيث كنت تجلس.

— أدرتَ آلة التسجيل، على ما ألاحظ.

— لا شيء يدعو إلى الحرج.

— أُنبِّهُك إلى أنني سأتوقف عن الكلام بمجرد وصول أحدهم إلى الدكان، أو تعرّفه إليَّ.

— أنبقى على الدرج أم نعود إلى الدير؟

— ألي أن أُعلمَك — وأنت الخبير المتمرس بفنون المحادثة — بكيفية إدارةِ الأسئلة؟

— لم تجبني بعدُ عن السؤال: لماذا تركتَ الدير؟

— لكَ أن تصدقني.

— ما الذي يضمن لي صدقَ ما تقول؟

— ما أقولُه. فأنا إذ أقوله أعرف تماماً أنني أعرضه في الوقت عينه على معرفتك ونباهتك.

— إلا أنني أشعر، جولة تلو جولة، بأنك لا تتوانى عن الهرب: أفي الأمر ما يحرج؟

— لا، كما قلت لك: في الأمر ما يوجع.

— لكنك بدوتَ سعيداً في الدير بعد شهور.

— نسيتُ فيه تماماً الطريق المؤدية إلى الصخرة، وحذرَ غاندي الدائم، وتعليمَ سيرين وسركيس لي أغنية بالأرمنية تقول في جملتها الأولى: «يِكور،

يِكور...».

نسيتُ خصوصاً سهرة السبت أمام التلفزيون مع مسلسل «القاهرون»، وتركتُ إلفيس بريسلي في جزيرة هاواي يتابع تصوير فيلمه...

— ... ولكن؟

— لماذا العجلة!؟ لماذا تطلب الاعتراف فقط!؟ يحلو لي سرد هذا.

دخلتُ إلى عوالم وعوالم. بعد أن تنبهَ المراقبُ العام إلى ولعي بالقراءة، طلبَ مني، في إحدى العطل الصيفية، تصنيف مجاميع من الكتب كانت مكدسة في أكياس. قلّبتُ الكتب والمجلات المغبرة مثل آثار نفيسة؛ فتحتُ أوراقها بحرص المتفقد لكنوز دفينة... كنتُ أتوقف عند أسماء وعناوين وجمل بانبهار شديد، مثل غابات كثيفة تتكشف عن رنين صاعق... مشاعر حارة، ضاجة، كان صداها المدوي يتتابع في مخيلتي بمجرد انتهاء ساعة العمل اليومية فيها، ويتتابع على لساني في حديثي مع صديقي حارث، الذي كان يتبلغ مني كشوفاتي اليومية.

— كما لو كنتَ مُهيأً ومتشوقاً لمثل هذه المكتبة المبعثرة.

— ربما، على الرغم من أن معرفتي بالأدب كانت تقتصر على أسماء قليلة، مثل: سعيد عقل، الذي زارنا في المدرسة مرتين أو ثلاث؛ وعمر أبو ريشة، الذي قلدتُه في السنة نفسها في إلقاء الشعر، وإن كنت ألقي قصيدة للافونتين، لا زلتُ أحفظ تماماً بيتها الأول.

تعرفتُ، حينها، إلى أسماء، مثل ناصيف اليازجي في «شرح الجمانة...»، وعلى الشيخ عبد الله العلايلي بوصفه من «لجنة أنصار السلم»، وعلى «قدموس» سعيد عقل... لكنني تمتعت خصوصاً بقراءة مجموعة قصص لميخائيل نعيمة ورواية لنجيب محفوظ.

— لماذا تذكرهما بالتحديد؟

— أذكرهما من جملة قصاصين آخرين، بعد أن طالبَني المراقب العام بقراءة قصصهم، ومعرفة ما إذا كانت «موافقة» للتربية المدرسية، الدينية طبعاً.

أذكر محفوظ خصوصاً، وقد وقعتُ، في رواية «زقاق المدق»، على مقطع أثارني جنسياً للغاية، لدرجة أنني مزقت بعض الصفحات بحجة مراقبتها، فيما أخفيتُها في دفتري الخاص. وهو ما شرحتُه للمراقب العام، فأخبرني بأنني ملزم بإخباره بالممنوعات، لكي يمنع الكتاب بنفسه، أو لكي يضع فوقه ورقة سميكة لاصقة، إذا كان جملة أو لفظاً وحسب.

وهي الحالة الثانية التي حدثتْ لي مع قصة لميخائيل نعيمة، انتهت بالجملة التالية — على ما أذكر —: «قبَّلَها قبلة عميقة». أنَّبَنِي المراقب العام بعد وقت لأنني لم ألحظ تلك الجملة، أو لم أنبهه إليها، فكان أن سحب مني المهمة.

— أفاقتْ شهوتك الجنسية من جديد!

— علمتُ بعد خروجي من الدير أنهم كانوا يدسون مادة «الكافور» في الحساء الواجب كل مساء للتخفيف من اندفاعاتنا الجنسية، ولا سيما قبل الليل.

— أكان ما يحدث جنسياً في الليل؟

— هذا ما كان يروج في بعض حلقاتنا الضيقة، ولا سيما بين الكبار منا.

— ماذا كان يروج؟

— أخبار عن ممارسات غريبة.

— كيف ذلك؟

— كنا نمضي العطلة الصيفية في أحد الأديار الجبلية: أخبرني حارث بأن أحد رفاقنا كان يهرب من المنامة العامة في الليل، ويمضي إلى القرية المجاورة، ويمضي السهرة فيها، قبل أن يعود مع تباشير الفجر الأولى.

— أهو خبر مختلق أم صحيح؟

— صحيح.

— كيف عرفتَ؟

— تأكدتُ منه بنفسي: كنت مكلفاً بوضع جرار مليئة بالماء على سطح الدير، في الليل، لكي يكون ماؤها عند الصباح بارداً. تأخرتُ في صب الماء في الجرار، وتباطأت في البقاء على السطح، المطل على باب خارجي يدخل ويخرج منه عدد من العاملين الخارجيين في الدير. بعد وقت قليل تنبهتُ إلى خروج رفيقنا، مع أحد العمال، من دون أن أعرف وجهتهما.

— وبعد؟

— فاتحتُ رفيقي هذا بالأمر في اليوم التالي، فأنكرَ ذلك. إلا أنني لم أرَ وجهاً له بعد أسبوعين.

— أطُردَ من الدير؟

— قيل إنه هرب. بل قيل أكثر: إنه اختطف صبية إلى المدينة البعيدة.

— يصعب تصديق الخبر.

— لكن أموراً غريبة كانت تحدث.

— كيف ذلك؟

— مثل حكاية صديقنا، في السنة الأولى، وكنا نمضي الصيف في دير آخر: أتى بحرامه الصوفي ليلاً، ووقف عند نافذة عالية، بعد أن طَلبَ من ثلاثة من رفاقه انتظاره في الباحة الخارجية للدير للتمتع بمنظره الخارق.

— ماذا فعل؟

— رمى بنفسه من النافذة، بعد أن أحكمَ ربط الحرام حول عنقه مثل وشاح.

— لماذا؟

— كان يحاكي عمل «سوبرمان» الطائر.

— أبلغتْ أخبار «سوبرمان» الدير؟

— أتى بها إلينا. كانت أكثر تسلية من قصص الكونتيسة دو سوغور بالفرنسية.

ألنا أن نتمشى؟

— لماذا؟

— لأنني تعبتُ من الجلوس.

— مع أنكَ كنت تمضي ساعات وساعات فوق الدرج من دون ملل.

— كنا نتسلى، ولا سيما في الليالي المقمرة، لا مثل هذه الليلة التي لا نرى فيها نجمة، ولا نسمع سوى أصوات حشرات الليل والنهر.

— ...

— لا تخفْ، لن نتوقف عن الكلام. سنتمشى فقط، وفوق الطريق الإسفلتية.

— ألا تخشى مصادفة أحد؟

— لا يهم الآن.

— لماذا؟ هل ارتحتَ الآن؟

— أثناء المشي، سأكتفي بإلقاء التحية، ولست ملزماً بإجراء محادثة.

— هناك بيوت مُنارة. القرية ليست مهجورة، كما ظننتُ.

— ليس لهم ما يعملونه في الخارج: الأولاد ناموا، الرجال منهم يلعبون الورق، والنساء يتابعن مسلسلاً تلفزيونياً محلياً.

— وأنتَ؟

— أتجولُ معك فوق طريق مظلمة.

— أهكذا ترى إلى سنوات الدير؟

— هكذا أرى إلى السنة الثالثة خصوصاً. كانت سنة صعبة، مضطربة. تركتُ فيها المريول الأسود لكي أرتدي العباءة السوداء للطالب «المبتدىء».

— بماذا كنت «مبتدئاً»؟

— تعني السنةَ الأولى في التدرب على الحياة الرهبانية، قبل أن أصبح «أخاً» في ختام السنة الثانية، ثم راهباً — كاهناً بعد الانتهاء من تحصيل دروسي.

— أأصبحتَ راهباً، إذن؟

— لا. هي عتبة الحياة الرهبانية، وتقضي باختبار أهلية الطالب في التقيد بالمسلكية المتشددة، وبنذورها الثلاثة.

— ما هي؟

— نذور الطاعة والفقر والعفة.

— أتقيدتَ بها؟

— لم أجدْ صعوبة في التقيد بالفقر؛ فلم يكن هناك — لا قبل دخولي الدير، ولا أثناء مقامي فيه — ما كنتُ أملكه، وما كان لي أن أتخلى عنه؛ وهو ما كان يفعله، فيما مضى، رجال يدخلون إلى الحياة الرهبانية في عمر متقدم.

— ومع الطاعة؟

— تحققتُ في أكثر من أمر من أنني بتُّ أتذمر وأشكو من دون أن أفهم سبباً لذلك: لم يكن هناك من أوامر أو من طلبات للتنفيذ، مثلما كانوا يفعلون سابقاً مع «المبتدئين».

— أكانوا يخضعونهم لامتحانات شديدة؟

— هذا ما بلغتْنا أخباره، رفاقي وأنا، من دون أن نتأكد منه: كأن يُطلب من الطالب الذهاب بسلة من قصب إلى النبع للإتيان بالماء.

— حكاية مسلية.

— لم تكن كذلك لهم، على ما أظن.

— كيف ذلك؟

— كان لهم أن يتلقوا صاغرين تأنيبَ الراهب المشرف — إذ يعودون من النبع بسلال فارغة طبعاً —، وأن يعودوا إلى النبع من جديد.

— أسوأُ من إطاعة الأوامر في الجيش!

— لك أن تمتثل لرئيسك، أن تطيعه...

— ... مساء الخير.

— مساء الخير.

— أتأتيان من بيت داغر داغر؟

— ماذا تريد؟

— كنتُ قد لمحتُ شخصين على شرفة البيت...

— وبعد؟

— أهو عاد؟

— ماذا تريد منه؟

— لي معه حساب.

— مالي؟

— لا، لي أن أستوضحه في ما قاله عني.

— وماذا قال عنك؟

— قيل لي إنه قال عن دعد كلاماً مشيناً.

— ماذا قال؟

— أنا لم أسمع ذلك.

— من أنتَ بالنسبة إلى دعد؟

— أنا عمها. ومن أنتما لتسألاني؟

— نحن غريبان، كنا في زيارة إلى الدير.

— إلا أنك تشبه... شربل، على ما ألاحظ.

— فعلاً؟

— ولكن من دون لحية، ومن دون نظارتين... كما تبدو أسمن منه.

— مساء الخير.

— مساء الخير. ولكن أين ستنامان الليلة؟

— في المدينة.

— أستعودان مشياً؟

...

— أنعود إلى السيارة؟

— لا. بتنا بعيدين عن البيوت، وأنتَ لم تكمل الحديث — على ما أظن — عن سنتك الثالثة في الدير... كنتَ تحدثني عن نذر العفة. أتقيدتَ به؟

— نعم ولا.

— كيف ذلك؟

— كان يريحني التمشي فوق هذه الطريق. كانت طريقَ تمشينا الليلي، خاصة بعد إغلاق الدكان.

— أيريحك التمشي اليوم أيضاً؟

— نعم، خاصة وأنني أتحاشى النظر إلى وجهك.

— هذا أسهل في البوح.

— من دون شك.

— ألِلْعفّة سبب في خروجك من الدير؟

— أنا مرتاح لأنك بت تتكلم عن «خروجي»، لا عن «هربي».

— المهم الحوار نفسه، لا أنا.

أعود إلى السؤال عينه: أللعفة سببٌ في خروجك من الدير؟

— كان لنا الحق في أن نتمشى على مقربة من الدير، البعيد عن المدينة. هذا ما كان يروق لي عند الغروب. قلما كنا نلتقي بأحد، غير بعض العاملين في أراضي الدير، أو في المطبخ.

في أحد الأيام حملتُ بين يدي كتاب الصلاة مفتوحاَ، كما لو أنني أقرأ فيه، تقليداً لصورة قريبي الذي عُرف عنه، في شيخوخته، في تقاعده، أن إحدى الراهبات رأته عند الغروب، يتنقّل — وهو فاتح كتاب الصلاة — بين مبنى وآخر في الدير، حيث كُنَّ يقمن بخدمته، هو وعدد من الرهبان المسنين.

— أي أنه طار.

— نعم... وأنا معتاد على الطيران.

— كيف ذلك؟

— هذا ما قالتْه أمي لي عن طيراني من على شرفة البيت المطل على البحر، في قرية ساحلية حللنا فيها لأسابيع، قبل توطننا في العاصمة.

— كيف طرتَ؟

— بسبب عاصفة هوجاء.

— أتذكر ذلك؟

— لا، أبداً.

ما أذكره، هو أنني سمعت نداء باسمي في تلك النزهة، فرحتُ أنظر إلى السماء. وزادت دهشتي إذ وجدتُ أمامي صديق الطفولة، عصام، مع صبية لا أعرفها. «من أين أتيتما؟»، قلتُ لهما، وكدتُ أتابع: «كيف حللتما إلى جانبي؟». صديقي لم يصدق أنه وقع علي، وبعباءة الرهبان، فيما كانت الصبية متراجعة عدة خطوات عنا، ومرتبكة. «كنا وراء تلك الصخرة»، أجابني، وهو يدلني عليها. ارتبكتُ في صورة مزيدة بمجرد سماعي لجوابه. تلعثمتُ وأوقفتُه عن متابعة أي كلام: «أتعرِف أنه ممنوع عليَّ مخاطبة أحد من دون إذن مسبق؟».

— أهذا صحيح؟

— طبعاً...

أنَّبَني «المرشد الروحي» بعد عودتي إلى الدير، وإخباري له بما حصل. وانتهيت ليلتها إلى قرار خطير، غير أني توصلت إليه من دون مشقة: لن أعترف بعد اليوم بأي شيء.

— أكنتَ ترتكب أخطاء كثيرة لكي تجد حاجة إلى الاعتراف؟

— كان هناك اعترافان: اعتراف اعتيادي، للكاهن في «كرسي الاعتراف»، في الكنيسة، عند اقتراف «خطايا» بالمعنى الكنسي، وآخر لدى «المرشد

الروحي» لإعلامه بأمور تحدث لنا، ونحتاج فيها إلى مشورة.

— عن أي الاعترافين امتنعتَ؟

— عن الاعتراف الثاني، بعد أن تدبرتُ أمري مع الاعتراف الأول.

— كيف ذلك؟

— قررتُ قبل ذلك الامتناعَ، عند الاعتراف الكنسي، عن بوح بعض الأمور.

— مثلاً؟

— عن التفجرات الجنسية.

— ما هذه؟

— تضايقتُ ذات ليلة، بل استيقظتُ لكي أجد سروالي الداخلي مبللاً بسائل لزج. هذا ما حدثَ لي مرة ثانية، وثالثة... وكنتُ في كل مرة أمضي إلى الحمام متضايقاً، محرجاً، لكي أغتسل وأبدل سروالي. في المرة الثالثة أو الرابعة التقيتُ بمنير في الحمام، فسألته مندهشاً: «ماذا تفعل هنا!؟». فقال لي: «أتدبرُ أمري. هذا أفضل». «كيف ذلك؟»، سألتُه. فقال لي ضاحكاً: «أمارس العادة السرية». فسألتُه متعجباً: «ماذا؟». «تعال إلى هنا. ألا تعرف؟». لم أقترب من الحمام الذي كان يقف فيه، فخرج منه وأراني عضوه المنتصب، وهو يداعبه... ارتبكتُ وخرجت سريعاً من الحمام، من دون أن أغتسل.

لا زلتُ أذكر، حتى اليوم، ضحكة منير الساخرة، فيما كنت أولي الأدبار.

— وكيف دخلتَ إلى الحمام وهو فيه!؟

— كانت هناك غرفة كبيرة، فيها حمامات فردية ومغاسل عديدة.

— هل تكررت المحاولة؟

— امتنعتُ عن الاعتراف بتلك «الخطيئة»، بل كذبت واعترفت بخطايا أخرى، أبسط، لم أرتكبها.

— وماذا عن علاقتك بمنير؟

— لم أبادله الحديث بعد ذلك، إلى أن بادرني ذات يوم، عند تبديل الملابس، بعد اللعب في الكرة الطائرة، بالقول: «أنا متأسف. كنت أريد مساعدتك وحسب».

— وبعد ذلك؟

— ارتحتُ لكلامه، لكنني بقيت حذراً منه. بل شكرتُه في سري بعد أيام، إذ وجدتني أمارس العادة السرية في الحمام، ومغتبطاً بما كنت أفعل، بما نجحتُ في فعله، وحدي.

خرجتُ من الحمام، بل من الدير يومها.

— أهكذا خرجتَ؟

— انقضتْ أيام وليال، خصوصاً بعد هذه الواقعة، براحة هانئة، بل شعرتُ بشيء من الثقة بنفسي: صرت أنام — كما يقولون — «قرير العين»، من دون سراويل مبللة. غير أنني قطعتُ — داخلياً على الأقل — صلتي بالدير وأهله.

لم تدُم طويلاً هذه الراحة، إذ باتت تنتابني أحلام وتخيلات ومشاهد، تقلقني بقدر ما تثيرني: مشاعر حارة يختلط فيها الخوف بالرغبة، كما حدث لـ«بطلة» رواية «زقاق المدق». وصرت أتقلب في فراشي بين برلنتي عبد الحميد وزبيدة ثروت: الأولى لقضاء الليلة، والثانية للنزهة على «الكورنيش».

— ومنير؟

— لم يبقَ في الدير طويلاً.

— أخرجَ أم طُرد؟

— البعض قال عنه إنه ضُبط مع أحدهم في الحمام، والبعض الآخر إنه هرب بعد أن تواعد سراً مع قريبة له وافته إلى الدير بسيارتها الخاصة...

— وأنتَ ماذا تقول؟

— أعرف أنه اختفى من الدير فجأة.

— أخرجتَ بعده؟

— لا، بعد شهور، إثر مداخلات شارك فيها قريبي الراهب بطلب من أبي: أتى لزيارتي، ولسؤالي عن معنى الرسالة التي أرسلتُها لوالدي طالباً منه المجيء لإعادتي إلى البيت. لم أُحسن التحادث معه، خصوصاً كان يصعب عليَّ إبلاغه بما يصيبني ليلاً، وفي نزهة الغروب... اكتفيتُ بجملة كررتُها على مسامعه طوال محادثتنا: «دعوتي فاشلة، على ما يبدو».

— متى خرجتَ إذن؟

— في ١١ آب ١٩٦٦.

— ألا زلت تذكر الموعد؟

— دونتُه على دفتري الخاص، وباللغة الفرنسية.

— لماذا؟

— لا أعرف.

كان يوم أحد. خرجتُ من دون أن ألتفت إلى الوراء، مع حقيبتي الصغيرة. لم يُحرجني عدم رغبتي في توديع الرفاق، إذ كانوا في الكنيسة، أثناء القداس الاحتفالي.

في سيارة الأجرة، التي أقلَّتْنا في طريق العودة، جلستُ في المقعد الخلفي إلى جانب والدي.

تمنعتُ عن التحديق في وجهه، إلى أن نجحتُ في ذلك على الطريق الساحلية: كان يدخن بعصبيته الاعتيادية، ويبدو عليه الهم، على عادته أيضاً، فيما كنت أجد صعوبة في تلقي أشعة الشمس الملتهبة والرطبة.

لنعدْ إلى السيارة، فأنا متعب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

٤

— ها أنا قد انتهيتُ مما كلفتَني به.

— مَن كلف مَن واقعاً؟

— ...

— أبقي شيء؟

— بقيت أشياء.

— عمّ تتكلم؟

— عما زاغ، وهو على مقربة منا.

— هذا طبيعي. بمجرد أن نتوقف، هناك من لا يتوانى عن التقدم وإن ببطء؛ بمجرد أن استوقفَنا أحدُهم أثناء التنزه، فاتَنا ما يحصل أمامنا، ما كان لنا أن نراه.

— لا، هناك من خرج من الصورة تماماً، أو من وقف فيها من دون تعبير.

— أنتَ وضعت المخطط. أنتَ أدرت التنقلات والوقفات في الغالب. أتريد استلحاقاً ما؟

— هناك نقص أكيد.

— يمكن تعويض بعضه أو الزيادة عليه.

— وماذا عن الطعم المر في الحلق؟ وهو مما يتولد أثناء الجريان، مما يسري في مياه جوفية، مما يسبق شفاهي ويتخللها.

وماذا عن ظنون أو شكوك تراودني، فيما أعيد سماع بعض ما جمعتَ، أو قراءة بعض ما نقلتَ؟

— عن أي نقص تتحدث؟

— عن غاندي مثلاً.

— صديق الحي؟

— الصديق الأقرب.

— لماذا نسيته؟

— لم أنسه، لكن الكلام يكر مثل خيط صوف... اعتدتُ طويلاً على أن يختلط الكلام بخيطان الصوف.

كنا نتبادل أخباراً أو قصصاً أو نكات، فيما أمد ساعدي لأمي، أو لإحدى أخواتي، لترتيب خيطان الصوف في بكرة تصلح للحياكة اليدوية، أو لماكينات نسج الكنزات: خيطان يتم إعدادها من جديد، بعد أن تكون أختي قد اشترتها من محل «النوفوتيه»؛ خيطان واحدة لحكايات مختلفة، حيث الحكاية كنزة والكنزة حكاية...

كان يروق لي المشهد. لا أحسن تذكر الانفعال الذي كان يعتمل بي في تلك الأوقات؛ ما أحتفظُ به طعمٌ طيب، صورٌ ملتبسة، غامضة، إذ ينفك الخيط عن غيره، ثم يُحبك من جديد. حركة شبيهة بما كنا نفعله، في الصيف، بأوراق الشتل وثمار الأشجار، وغيرها من الحركات التي اعتادت عيناي عليها في العمل اليومي، القروي. هذا ما كانت تسويه أمي في شتلات اللوبياء، أو عند تجفيف عدد من الثمار ...

— ... نسيت غاندي من جديد.

— لا أعرف ما جمعني به: أهي المدرسة؟ أهي قربى السكن؟ أهو اللعب في الشارع؟ لا أتذكر سبب ذلك.

كان بيتنا يقع في شارع مواز للشارع الذي يقوم فيه بيت أهله، وكان بيته محاذياً لسكك حديد القطارات. كنا نتسلى أحياناً بوضع سدادات الزجاجات الفارغة فوق السكة الحديد، في انتظار أن يمر «الأوتوماتريس» السريع، يوم السبت بعد الظهر، لكي يدهس القطار المسرع السدادة المعدنية فيسويها ملساء. وكنت أخفيها — بالاتفاق مع غاندي — في شقوق تقع فوق السطح ل«معاركنا» المشتركة في الحي.

كان اسمه غير مألوف في وسطي العائلي... اسم غريب آخر في بيئة اعتادت على وفرة الأسماء الغريبة. لعلي ظننته اسماً من المعين نفسه الذي تنبهت إليه في دكان أبيه، القريب من بيتهم، إذ سألته مرة: «من هو هذا الفتى الأسمراني في الرسم الذي يعلو طاولة أبيك في الدكان؟»، فأجابني بشيء من الافتخار: «إنه الإمام علي». اكتفيتُ بالجواب من دون أن أفقه معنى له. أخجلني الوضع كفاية ما لم يدعني إلى مزيد من الاستفسار.

كان الشارع يعج بأسماء غريبة ممن كنت أسمع بها قرب الدكان أو فيه: زوهراب، العامل في كاراج لتصليح السيارات، ومارديك صاحب محل الأحذية، وأرتين الحلاق، وكثيرون ممن كنت أستمع إلى أسمائهم صدفة فلا تعلق في ذهني، ولا أظن أنني محتاج إلى حفظها بالضرورة...

— ... ولا إلى حفظها، هنا، أليس كذلك؟

— فعلاً، قد لا يجدي هذا التعقب، ولا هذه الأمانة.

— ولماذا لم تتحدث عنها؟

— عمن تتكلم؟

— عن الوالدة.

ذكرتَها مع غيرها، عابراً. لماذا؟

— إذ كنتُ أتكلم، كنتُ أقترب منها.

— إلا أنك تحدثت أكثر عن الوالد، لا عنها!

— هذا مختلف: كان لي أن أهرب منه، أن أخاف منه، أو عليه...

— ... إلا أنه حماك.

— هذا ما يظهر في صورة فوتوغرافية فعلاً... لعله تبناني.

— ما يعني هذا! ألستَ ابنه الشرعي؟

— أنا ابنه بالصدفة...

— ...

— لا يحق لك، وأنت الطفل العاشر في عائلة، أن تطالب حتى بنصيب من وصية! فكيف إن كنتَ... هفوة، أو نزوة، جنسية.

— وماذا عنك معها؟

— علاقة صامتة في الغالب. كنتُ مبعداً عنها، أو كانت دوماً مشغولة.

... حتى حين كان لها مسلسل تلفزيوني تتابعه مساء كل يوم، كانت تلوي رأسها على رقبتها وتنام.

— مع ذلك، لا تتوانى عن الالتفات إليها.

— بمجرد ما أتكلم، أكاد أتلمسها.

— هذا قول شحيح للغاية.

— لا، هذا قول رهيب.

— ولكن، بلمحة عين...

— ... بما ينير عتمتها الساكنة.

–...

— أسْتعيد ما قلتُه: هذا كلام قليل.

— هذه ليست حروفاً لكي ترتديها مثل معطف، نسيه أحدهم على مقعد، وكنت تشاطره الجلسة فيه، في بهو القطارات.

— ما...

— ... وهي ليست جملاً وحسب لكي تتلفظها مثل ممثل لدوره المسرحي.

— ما هي، إذن؟

— هي مما بكيتُ من دون أن أقوى على قوله... مما بكيتُ لكي أنتهي إلى قوله، كما قلتُه.

— ألا يمكنني قوله بدوري؟

— لا. ما كان يدفع الكلام إلى أن يكون، مضى فيه...

حتى أنا، لا أقوى على استرجاعه، إن شئتُ.

...

— ألي أن أسألك أنا بدوري: أكان الأمر ميسراً لك، أنت المعتاد على مثل هذه الحوارات؟

— لا أتحدث — إن شئتَ — بمثل هذه العبارات، بل بغيرها. لي أن أتحدث — إن شئتُ — عن تشويق، عن إثارة، عن خفاء، عن عتمة، عن زوايا في النظر، عن تركز وتبدد وغيرها الكثير.

— لسنا، لا أنا ولا أنت، في معرض استرجاع ما قمتَ به، ما قمنا به. ما يعنيني هو معرفة ما إذا كانت الصورة وافية؟

— هناك فارق بيننا، على ما أظن: هناك صورة تصل إلي، أتتبعُها وأستعيدها، كما أتحرى ملامحها في الألفاظ...

— أتتحدث عن صورة لي؟

— لا، عن صورة لا أعرفها، لن ألتقيها أبداً في شارع، ولن أصافحها باليد.

هي صورة ستبقى — لو شئتُ استعمال لغتك الاصطلاحية — مثل لوحة وجهية فوق حاملها المسندي من دون توقيع.

— وصورتي أنا، أينها؟

— هي لك، فيك، سابقة، قد تتحقق منها فوق الورق، على ألسنة مختلفة، إلا أنها ستبقى ناقصة، مختلفة.

— لا أرى هذه ولا تلك، ما دام أن هناك صورة ثالثة.

— لمن؟

— له. هو الذي يتابعنا من دون أن يتكلم.

— أنا بدوري أتحدث عن نقص.

— ما هو؟

— ليس لكَ وحدك أن تفحص وتتفقد؛ لي أنا بدوري أن أفعل ذلك.

— ومَن مَنَعَك؟

— أنت؟

— كيف ذلك؟

— انعقدتْ شروطٌ بيننا، غير أنك لم توضحها.

— ماذا تريد أن تعرف؟

— ما الذي أوجب حدوث هذا الكلام؟ بل يجب أن أستبقه بسؤال: ماذا حصل بينكما لكي تجد ضرورة للعودة — ولكن من دونه — إلى سنوات بعيدة؟

— أيمكن تأجيل الجواب؟

— إن شئت. غير أن الداعي يبقى خافياً عليّ.

— لا يهم.

— وماذا عنه؟

— له أن يكتفي بما حصل.

— ألا تعتقد بأنه جواب إداري؟

— ماذا تعني بذلك؟

— تجيب بوصفك مديراً، أو منسقاً في أحسن الأحوال، لا بوصفك مستمِعاً — مشاركاً، أو مصغياً إليه. وهذا لا يخفى عليّ، ولا عليه.

— أيمكن تأجيل ذلك؟

— أأنت موافق، إذن؟

— ما قلتُ هذا.

— يمكن التوقف، لا الإرجاء. فلا وقت مزيداً لنا.

— ألي أن أتابعه مع غيرك؟

...

— ألي أن أطرح سؤالاً عليك؟

— أتطلب الإذن الآن؟ أليست هذه إشارة إلى أنك تستعد للمغادرة؟

— ألم ننتهِ واقعاً؟

— التقينا مرات عديدة، تبادلنا آلاف الكلمات، انتقلنا في قطار، وفي سيارة، وعلى الأقدام... ذهبنا إلى حديقة، وقفنا أمام متحف، أكلنا معاً، استلقينا على ضفة النهر...

— ... لو تبدأ بما لك أن تنتهي به.

— بعد كل هذا، أشعر بأنك لا تزال تتجنبني.

— لا. قلتُ لك ما لم أقله حتى لنفسي. ما الذي دفعَك إلى مثل هذا القول؟

— ها أنت تحاورني، منذ أن وصلتُ إلى بيتك، من دون أن تفارق بنظرك هذه القطة.

— لا أتجنبك، إلا أن منظرها يسليني.

— ماذا يسليك في هذه الحركات المتكررة؟

— ألم تلاحظ أنها تجهد في التقاط ذبابة؟

— بلى. وبعد؟

— ألا ترى هذه المجهودات الهائلة التي تبذلها؟

— بلى. وبعد؟

— هي أشبه بجيش مجرب، لها أسلحة مختلفة، تلجأ إليها للمداورة والوثوب والتربص والمخادعة...

— وبعد؟ أهذه كلها لقتل ذبابة؟

— لعلها لا تقتلها... لعلها تلاعبها...

— جهد هائل من أجل ذبابة!

— ألا تعتقد بأن انتزاع الرصاصة يحتاج إلى أكثر من فنون قطتي كلها؟

— ...

— أما انتبهتَ إلى أنك لم تذكر شيئاً في الحوار يدل عليك؟

— إلا أنني فيه.

— لا شيء يدل على هيئتك، ولا على تعابير وجهك.

— إلا أنني فيه.

— أذكر أنك شربتَ وأكلت ومشيت وارتشفت القهوة معي... أذكر أنني حدثتك حتى عن قطتي... أنت معي. أنت بفضلي.

— إلا أنني فيه.

— أيرضيك هذا؟

— إلا أنني فيه.

...

— بين يديك ما تبقى من المواد، تسجيلاً وتدويناً.

— شكراً.

بأي لغة دُونتْ؟

— بالفصحى.

— لماذا؟

— لأنني لا أعرف — ولم أجد — طريقة معتمدة لتدوين العامية.

— غير أن ذلك يبدل الكلام.

— أرجوك. أرجوك... أنا جمعتُها، ودونتها فقط.

أتريد أن تقول إنني كتبتها بلغتي؟

— أنت لم تترجمها على أي حال.

— ألم أكن أميناً؟

— لم أقل هذا.

— أتريد أن تقول إنني كنتُ في موقع من يترجم جزءاً من حياتك؟

— مترجم حياة؟ مترجم وقائع؟

— ألي أن أسألك عن مصيري؟

— تعود إلى حيث كنت.

— شكراً على هذا الجواب.

ماذا عن شراكتي بما قمنا به؟

— لو كنا نقوم بصناعة فيلم لكانت الإجابة هينة: يتم إيراد اسمك في قائمة العاملين فيه.

— الجواب ذكي، لكنه لا يرضيني.

أعود إلى القول نفسه: ماذا عن شراكتي بما قمنا به؟

— أتلاحظ عدد العاملين الكبير في فيلم، حتى لو كان قصيراً؟

أتلاحظ أنه قلما يرد على غلاف الكتاب غير اسم واحد أو اثنين على الأكثر؟

— كيف كان ورد اسمي؟

— لا أعلم جواباً.

هذا يعني أنك تفترض أنني سأقوم بإخراج هذا إلى العلن.

— طبعاً.

— هذا قرار مؤجل.

— هل تعتقد أنك تملك مثل هذا القرار؟

— طبعاً. لماذا تشكك في هذا؟ أيعود بعض القرار إليك؟

— عاد فيما حصل.

— لكنك قلتَ بأنني أدرت الحوار، أليس كذلك؟ هو حواري، إذن، ولكن بواسطتك.

— لعلك تنسى أنني أنا الذي أجريتُه.

— أجريتَه إدارياً، تقنياً.

— لا، استمعْ جيداً إلى ما سأقول: أنا لم أعطك فرصة الكلام إلا لكي أنتزعه منك.

— أهذا ادعاء أم اعتراف؟

— لا، هذا قول واقعي. بات كلامك كلامي بالضرورة.

أما من الناحية القانونية، فإنه لن يكون في إمكانك نشر هذا كله من دون موافقتي.

— كيف ذلك؟

— هذا ما ينص عليه القانون. وصوتي المسجل هو ضمانة ما أدافع عنه.

— هذا يشبه الفخ.

— لا، هذا أقرب إلى الاستدراج الموفق.

— لماذا فعلتَ هذا؟!

— في هذا ما يُسِرُّ الكتابة نفسها.

— أفيه ما يسرك أيضاً؟

— طبعاً. أتظن أنني قلم، أو حاسوب، إذا شئتَ؟ أتظن أنني أداةٌ تسجل وتنصاع، من دون منفعة، من دون التذاذ؟

— أهو التذاذ البصاص؟

— بل أكثر من ذلك. أسمعتَ بحكاية العشيق المخدوع؟

— لا.

— يُحكى أن أحدهم تدبر من أحد معارفه غرفة في بيت لقضاء ساعات متعة مع عشيقته. هذا ما فعلاه مرة ومرتين وأكثر بحرية فائقة، حتى أنهما جربا فيها ما لم يفعله آدم مع حواء في الجنة.

— أهكذا قالت الكتب المقدسة؟

— لا، هذا ما قالته الحكاية.

— وبعد؟ لماذا كان العشيق مخدوعاً؟

— اكتشفَ العشيق أن صاحبه ثَقبَ جدران الغرفة في أكثر من مكان، بما يكفي متعته المتجددة... فكان أن وقع العشيق في ورطة ثقيلة.

— ماذا فعل؟

— أخبرَ عشيقتَه بما يجري، فلم تجد في ذلك فضيحة، بل قالت له: «لماذا لا تطلب منه المشاركة معنا؟».

— وبعد؟

— أراقتْ لك الحكاية؟

— ...

— لم يطق العشيق سماع كلامها، رفع يده لصفعها، فكان أن سارعته بالقول: «لعلكَ نسيتَ. أنا عشيقتك، لا زوجتك».

— أهي من حكايات «ألف ليلة وليلة»؟

— لا، من كتاب اشتريته من على رصيف، يوم أحد، لما كان باعة متجولون، أو طلاب محتاجون، يأتون إلى شارع الملاهي، ويبسطون كتبهم المستعملة...

— ... أووه! إلى أين أنتهيتَ؟!

كيف انتهت الحكاية؟

— يظن الراوي بأن العشيقة استعذبت، بعد المشادة، المجيء إلى تلك الغرفة، في المواعيد عينها، ولكن مع البصاص هذه المرة.

— وعشيقها؟

— بات يقيم في السوق يروي على مستمعين عجولين حكايات...

— ... أأنا العشيق أم صاحب الغرفة؟

— قد تكون المستمع العجول. أو لعلك كنت كذلك قبل أن نلتقي.

من كان يلتفتُ إليك؟ ألم تكن منسياً، مهملاً؟

أما كنتَ متسمراً، منذ سنوات وسنوات، فوق تلك الأفرشة؟

— لعله هو — هو وحده — الذي حاك هذه المكيدة.

لعلك لهذا السبب رفضتَ دوماً إجراء الحوار معه.

— لا، هو وقع في الاستدراج بدوره. مثلكَ أنت.

ألم ترق لك حكايتي؟

— بلى.

— كما راقت له أيضاً.

— ماذا تقول!؟ ألك أن تعيده من جديد؟

— ألا يحق لي أن ألعب بدوري؟... لمرة على الأقل.

— متى كان ذلك؟ متى لعبت؟

— ...

— الآن أم في سابق ما جرى؟

— ...

— هل اعترفَ؟

— ...

— وأنت؟

— أنا بصاص... لا، أنا متفرج، في فيلم «كاوبوي»، يتلهف إلى أن يكون الشاهد الوحيد على المشهد الأخير...

— ... على المواجهة الأخيرة، على الأول الذي يسرع في إطلاق الرصاصة القاضية.

— أتريد أن تكون متفرجاً في صالة أم شاهداً في ساحة غبار؟

— لعلك تنسى: أنا شريك، وإن صامتاً. أنا شريك في جميع المشاهد.

أنا أتشوق لمعرفة مقدرتك على طرح الأسئلة.

— مع من؟

...

— لعلي نسيتُ. سبق لكَ أن أجريت حواراً أثناء عملنا المشترك؟

— مع من؟

— أنسيت؟ مع طوني سلامة.

— فعلاً.

— تكشفتْ لي فيه مواهبك في التمثيل.

— عمّ تتحدث؟

— عنك، عن قدرتك على التخفي، على أن تدخل بيتاً تعرفه من دون أن يظهر منك سلوك مرتبك... بل تحققتُ من أكثر من ذلك، وهو أنك — مثل قطتك — كنت تلاعبه، لصديقك، بل تستفزه أحياناً... لعله يكثر من الشراب.

— كنتُ مستعداً للكشف عن هويتي: عدْ إلى الحوار، ستتأكد مما أقول. إلا أنه لم يبادرني إلا بعبارات التشكيك، بل الازدراء.

كدتُ، في نهاية الحديث معه، أن أنصحه بالذهاب إلى طبيب العيون.

— أتعتقد أنه كان له أن يعرفك؟

— من دون شك.

لقد كنتُ في تلك الجلسة واحداً من اثنين: صديق قديم أو لص عارف.

— لماذا؟

— لأنك لو تابعتَ مشيي وتوجهي في البيت...

— ... وماذا عنه، عن الغائب؟

— هذا لا يعنيك.

— بلى.

متى ستلقاه؟

— هذا لا يعنيك.

— بلى.

أستنصب له فخاً تمثيلياً بدوره؟ أستلعب معه؟

— ...

— ألم تنتبه أخيراً إلى أنك قادر على التخفي والظهور، على التكلم بأكثر من لسان، على البقاء في العتمة، أو خلف ستارة، والتحدث كما لو أنك في سوق خضار؟

— هذا لا يعنيك.

— بلى.

أأنت تحتاج إلى آلة التسجيل؟

— هذا لا يعنيك.

الوداع.

— إلى اللقاء قريباً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ... لم يبقَ لي غير أن أصل إلى نهاية هذا الدهليز المعتم...
— تماماً.
— من أنتَ؟
— الخريطة واضحة، أليس كذلك؟
— من المتكلم؟
— وصلتُ قبل وقت.
— أين أنت؟
— معك.
— لكنني لا أرى لك وجهاً.
— لا يهم.
— لكنني أنا صاحب الدعوة.
— أنا قبلتُ... أنا حددت مكان اللقاء.
— لا أتعرف تماماً على صوتك. لعلك ممثل... لعلك ممثل عنه.
— لك أن تصدق ما تسمعه، وإن بَلغَك عبر مكبر للصوت.
— أأنت قريب أم بعيد؟
— ما يكفي.
— كيف لي أن أصدق؟
— لستُ العشيق المخدوع، بأي حال.
— أأخبركَ بالحكاية؟
— نعم.
— أنت تعرفه، إذن.
— نعم.
— منذ وقت؟
— معرفة متقطعة.
— كيف ذلك؟

— تقتصر على مكالمات أو رسائل مقتضبة.
— ولماذا هي كذلك؟
— لأنه يداور دوماً حول الموضوع نفسه.
— ما هو؟
— يريد إعداد سيرتي.
— ألا تريد؟
— لا.
— لماذا؟
— لا يهمني الأمر.
— أبهذا الجزم؟
— نعم. السيرة رواية مختلقة، وأنا لا أحسن كتابة الرواية... أنت تعلم ذلك.
— لا، أنت تخشى ذلك.
— لا، أنت الذي يخشاها.
— كيف ذلك؟
— بدليل ما وجدتَ من صعوبة في البوح... بدليل ما فعله معك.
— ماذا فعل؟
— استدرجَك لكي يستدرجني.
— كيف تعرف هذا؟
— سلَّمني إياها... وهو يهددني بها.
— ...
...
— ألا تزال هنا؟
— لم أغادر مكاني.
— لماذا تصر على مكبر الصوت؟
— هكذا أفضل. لن يكون في مقدوركَ معرفة موقعي تماماً.

— دعْكَ منه؛ لن أقترب منك ما لم ترغب في ذلك.

لماذا تخشى اللقاء بي؟

— لا، أنا أتجنبه.

— يبدو أنه نجح في استدراجنا.

— لا، في استدراجك وحدك.

— ألهذا اشترطتَ عليَّ اختيار المكان بنفسك؟

— نعم.

— للتأكد مما أريد. لتحاشيه إن شئتَ.

— ...

— هذا يعني أنك قد تتوقف عن الكلام في أي لحظة. قد تختفي من جديد. لسنوات مزيدة.

— نعم.

يمكنك — إن شئتَ — الصعود إلى الخشبة.

— أنت تراني.

— لا، أنا أخمن مكانك، إذ لم يكن في مقدورك، بعد الدهليز المعتم، سوى التقدم في الممر المحاذي لمقاعد المتفرجين...

— أصبحتُ قريباً منك، إذن.

— يمكنك قول هذا. ماذا قررتَ؟

— ولماذا أصعد إلى الخشبة؟

— لكي تقول ما يقنعني باللقاء بك.

— لكنها معتمة.

— أهكذا أفضل؟

— لعلك في غرفة مدير الإضاءة.

— هي غرفة المخرج أيضاً.

— أتراني جيداً؟

— نعم... لقد تغيرتَ بعض الشيء.

— ليس وقت فحص، أرجوك.

هذا لا يناسبني: أنت في العتمة تفحصني، وأنا تحت الضوء أعرض سمنتي!

— ما يضايقك فعلاً: هو أن تظهر، أن تتكلم.

— لا، هذا ما طلبتُ: أن أواجهك.

— أنت توجه الكلام صوبي، ولا تواجهني تماماً.

ما تخشاه فعلاً هو أن يكون ثالث بيننا فيما نتكالم.

— أنت تتحدث عن «تكالم» بدورك... أليس هناك ثالث بيننا؟

— من يدري؟ لا أحد يضمن ذلك بين مجرم وكاهن، في الاعتراف الأخير، قبل دقائق من تنفيذ حكم الإعدام، فكيف في مسرح!

— لو تخفف الإضاءة قليلاً... هي تزعجني بهذه القوة، كما تعلم.

— أنا بدوري أتساءل عما لك أن تقول.

— أستمعُ أخيراً إلى كلمة لطيفة منك.

— لا تفرطْ في التفاؤل.

— الكلمة لي. الكلمة لي. الكلمة لي...

...

— متى كان ذلك؟

— كان ذلك إثر مشاركتي في تظاهرة في سنوات الجامعة...

لم يقوَ الصف الأول على التقدم سوى خطوات قليلة... بدل أن نتقدم في صفوف متراصة، تراجعنا القهقرى... اندفعتُ إلى الخلف، قبل أن أدير ظهري، وأهرب مثل غيري، في اتجاه معاكس للهراوات التي تبينتُها فوق رؤوس الطلاب.

— أنت على خشبة! لعلك نسيت...

لكنك شاركتَ قبل ذلك في تظاهرة!

— ما كنت أخشاه هو أن تقع هراوة على نظارتي، أو أن يدفعني الحشد المتراجع بما يسقطها...

— خوف قديم.

— الخوف نفسه: من أن أتحسسَ الهواء بدل أن أمشي.

— إلى أين هربت؟

— ما كنت عارفاً بالمحلة... كانت تقع في الجهة البحرية... رحت أبحث عن مكان أختبئ فيه... وإذا بي أقع، في مدخل إحدى البنايات، على مقربة من غرفة الناطور، على لافتة معدنية تشير إلى وجود «ملجأ» خلف البناية.

— لماذا جلستَ؟ ... هي كرسي «المخرج».

— ظهري يؤلمني... وأنا لست في وضعية تمثيل، مثلما دعوني إلى ذلك.

— مَن؟

— المتجمعون في الملجأ.

— ما الذي دعاهم إلى التجمع؟ أهم من رفاق التظاهرة؟

— لا. كانوا يلتقون يومياً للتمرن على برنامج تخرجهم المسرحي.

— لماذا دعوك؟

— ...

— أي دور عرضوه عليك؟

— دور هابيل.

— ماذا!؟

— هابيل القتيل في «العهد القديم».

— ولماذا هابيل؟

— لأن دوره صامت...

أوقفوني بينهم مثل عمود، مثل كيس الملاكم: يتلقى الضربات وحسب.

ولما سألتُهم عن سبب ذلك، أجابني قاين: «هكذا يكون هابيل ضحية مكتملة».

— لماذا تروي هذا؟

— ألم تجد الصلة بعد؟

— أذكر قصيدة فيكتور هيغو في صف «البكالوريا» بعنوان «الضمير»... أحفظ حتى اليوم بيتها الأخير: «وكانت العين تراقب دوماً قاين».

قصيدته سمجة!

— لماذا؟

— يريد هيغو أن يقنعنا بأن للضمير عيناً تراقب قاين حتى في قبره!

— أليست لفعلته عقوبة ما، ولو في عتمة الضمير!؟

— ما هذا!؟ أأتيتَ بي لتروي هذه الخرافات!؟

أنا ماضٍ.

— تمهلْ. ألم يؤنبك ضميرك؟

— ألم تجد أفضل من هذا الكلام البليد للحديث عن خلافنا؟

— ألا تعتقد بأن لهابيل الحق في الكلام؟

— ها أنت تكذب... ها أنت تلعب... ومع ذلك تدّعي أنك الطاهر!

— لا، هذا ما حصل في الملجأ فعلاً.

— ماذا حصل؟ وباختصار.

— كان التمرين يقتضي منهم إجراء حوارات مسرحية متعددة ومختلفة ابتداء مما ورد في «العهد القديم».

— أفي النص القديم ما يسمح بمثل هذا التعدد؟

— طبعاً... لعلك نسيته. أتريد أن تسمعه من جديد؟

— أهو معك؟

— لا، حفظتُه غيباً.

— لا. أريد أن أعرف ماذا جرى بينكم...

أريد أن أعرف لماذا تقودني إلى ذلك الملجأ؟

— كان على كل تلميذ أن يتدبر تفسيراً للقتل: واحدٌ وجدَه في الخلاف على امرأة، وثان في التركة، وثالث في التقرب أو الابتعاد من الوالد، ورابع في التمرد، وخامس...

— ... وأنت؟

— لم يكن لي أن أجد تفسيراً.

— ماذا فعلتَ؟ لماذا بقيتَ؟

— بقيتُ لأنني كنت أتألم.

— مثل كيس الملاكم؟

— تماماً.

لم ينتبه أحد إذ أتيت بكرسي للجلوس، ولم يعترض...

«الكرسي الشاغرة هي هابيل»... هذا ما قالته لي حواء بعد نهاية التمارين.

— أبقيتَ جالساً طوال هذا الوقت؟

— نعم.

— وماذا فعلتَ؟

— لا شيء. تألمتُ فقط.

— وبعد؟

— كان ذلك بعد شهور على خلافنا...

— ... البداية دراماتيكية.

— لا تسخر مني وإلا رحلت.

— ما عدتَ تبكي، لكنك لا تزال تتألم.

أأنت تتألم أم تتذكر أنك تألمت؟

— تنبهتُ في التمارين — وأنا صامت، كما تعلم — إلى أنه لم تتح لهابيل فرصة التكلم، ولا الدفاع عن نفسه.

— هابيل... هابيل... ماذا كان له أن يقول؟

— ألم تلاحظ، في النص القديم، أننا لا نعلم حتى سبب الخلاف بينه وبين قاين؟

— وبعد!؟ وبعد!؟

— أنا بدوري لم أعرف سبباً لمغادرتك البيت.

— أأتيتَ بي، وبعد هذه السنوات، لتقول لي مثل هذا الكلام!؟

— ...

— لماذا تأخرتَ؟

— ترددتُ طويلاً.

— كان من الأفضل أن تقول: «تألمتُ صامتاً، تكلمت صامتاً... كما هي عليه عادتي».

— أنت تدينني.

— لا، أنا أصِفُك.

لا زلتَ كما كنت: ترضخ وحسب، ثم تلقي اللوم على غيرك.

— وجعي كان يشلني.

— لكنك لم تنقطع — على الرغم من الوجع — عن العودة إلى البيت، عن اللقاء بمعارفك...

— ... توقفْ. هي فرصتي — لا فرصتك — في التكلم.

— صحيح.

ولكن ما الذي دفعك — أخيراً — إلى رفع إصبعك، إلى طلب الكلام؟

لعلها رسالته...

— ... كيف تعرف هذا؟

— هذا ما قاله لي بدوري، وهو أن بين يديه وثيقة دامغة، أليس كذلك؟

— تماماً.

— أنت قبلتَ، لا أنا.

— وجدتُ حاجة إلى هذا.

— بل وجدتَ متعة، على ما لاحظتُ.

— نسيتُ السؤال عن الوثيقة، بعد أن وجدتُ في الكلام معه، عني، عنك، ما جعلني أقوم بدور هابيل من جديد.

— فهمتُ. فهمت... إلا أن القصة قديمة.

— لكنهم عاشوها بحرارة وحماسة فوق الخشبة، عدا أنها مليئة بالعبر.

— ألم تلحظ وجود تشابه بين: هابيل، و«المهبول» و«الأبله» و«الأهبل» و«الهاوية» و«الهلاك» و«الهباء»؟

— أنت تؤلمني بحذلقتك الدامية!

أنا أعيش هذه الحكاية حتى اليوم.

— غير أن استعادتها مستحيلة، ألا ترى ذلك؟

لن تكون سوى نوع من التأليف الجديد لها، سوى نوع فني من التزوير.

— أتريد أن أردد على مسامعك بيت فيكتور هيغو؟

— لا. بل أريد أن أقول لك بأن استعادة حكاية قاين وهابيل غير مجدية.

— كيف ذلك؟!

— هي تفيد عكس ما تظن.

— ماذا؟!

— لماذا وقفتَ؟

ابقَ جالساً. هذا أفضل لما ستسمع.

— هذا شأني.

— سأقولها بكلمات قليلة: أنتَ لست هابيل، ولستَ حفيداً له. أنتَ حفيد قاين.

— لا، أنتَ تخرف.

— بل أقول أكثر من ذلك: هيغو أخطأ في قصيدته، فقاين لم يمت بعد.

— ماذا تقول!؟

— ...

— أين أنت؟

— ...

— ألا تزال هنا؟

— ...

— لماذا هربتَ؟

— ...

— لعلك لم تنتبه إلى آلة التسجيل في جيبي.

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— يعنيني، بداية، أن أفيدك بأنني لم أهرب، إلا أن استكمال الحوار بيننا لم يكن ممكناً مع عدم توافر مادة الحديث، بين يدي، عن هابيل وعن قاين (والبعض يكتبه: قايين، أو قابيل في «التفاسير» الإسلامية).

أنتَ حفظتها، لا أنا. أنا قرأتُها منذ وقت بعيد، وانتهيت فيها إلى خلاصات هي ما قلتُه لك أخيراً، وما سأوضحه لك في هذه الرسالة الإلكترونية، مستعيناً بألفاظ النص نفسها (وقد عدت إلى أكثر من ترجمة): تتوافر في الحكاية معطيات سردية، بل درامية، ما يرسم سيرة قاين المفتوحة؛ وهي مفتوحة لأننا لا نعلم، بعد توقفها، ما إذا كان قاين قد قضى نحبه أم لا، وذلك لسببين:
— السبب الأول، هو ورود معلومات في «سفر التكوين» تدل على موت أجداد الإنسانية: عاش آدم تسع مئة وثلاثين سنة، وشيت، ابن آدم، تسع مئة واثنتي عشرة سنة، وأنوش، ابن شيت، تسع مئة وخمس سنوات... فيما لا يرد أبداً ذكرُ السنوات التي عاشها قاين.

— السبب الثاني والأهم، هو أن الرب وضع «علامة» على وجه قاين «لئلا يقتله كل من وجده».

وهو ما يدعوني إلى السؤال: أمات قاين فعلاً؟ ألا يتنقل بيننا، ظاهراً، محتجباً؟ ألم يقع عليه أحد الممثلين في زحمة حشد، منتبهاً إلى «العلامة» على جبينه، فكان أن اقتاده إلى الملجأ، وتدبرّ للعمل المسرحي صيغةً جديدة، مثيرة، تضعه في صلب أيامنا الجارية؟

وهي سيرة محرضة للخيال والعقل في آن، إذ إننا بقدر ما نعرف مسارها بعد المقتلة، لا ندرك الأساس الداعي إلى تفجرها، وهو الجواب عن السؤال المحير: لماذا قتل قاين هابيل؟ ولقد تنبهتُ، عند مراجعة السؤال، إلى أنني، إلى أن كثيرين قبلي، وبعدي من دون شك، طرحوا وسيطرحون السؤال في صيغة خاطئة. فالسؤال — على ما تبينت — لا يكون: لماذا قتل قاين هابيل؟ بل السؤال الموافق لظاهر النص وباطنه خصوصاً هو التالي: لماذا أخضع الرب قاين لمثل هذا الاختبار القاتل؟

فالعودة إلى النص لا تُظهر أبداً أي فارق بين «تقدمة» قاين و«تقدمة» هابيل: أتى الأول «من ثمر الأرض»، إذ كان يعمل في حراثتها، وأتى الثاني «من أبكار غنمه ومن سمانها»، وهو كان راعي غنم. فلماذا «نظر» الرب إلى تقدمة هابيل، أي بعين الرضا، وإلى تقدمة قاين «لم ينظر»، أي بعين الغضب أو الازدراء؟!

لا يظهر في النص ما يفيد عن سبب هذا التمييز في معاملة الرب لولدَي آدم. إلا أنه يتضح، من جاري الحوار بين قاين والرب، وجود توترات سابقة على

«التقدمة»، إذا جاز القول. فلقد «شَقَّ» على قاين ما جرى، بل «سقطَ وجهه»، فسأله الرب عما أصابه... كان التساؤل بريئاً في الظاهر، بل عادلاً، إذ استعلمَه عن سبب امتعاضه، بل عن حزنه الشديد، إلا أن جواب قاين لم يبلغنا. أما الفاحص المتأني للنص فيتحقق من أن الرب كان — واقعاً — يُخضع قاين لامتحان، متتابع الحلقات، ومستند إلى معطيات سابقة، يدركانها هما، لا غيرهما، ولا يكشفها النص. فكلام الرب لا يشير إلى أن هناك شيئاً فاسداً في «تقدمة» قاين، إلا أنه يوجه سؤاله إليه في براءة ظاهرة: إذا كان ما قدمتَه صالحاً فهذا حسن، وإن لم يكن صالحاً فإن «الخطيئة رابضة» عند الباب، ولك أن «تنقاد لشهواتها» أو أن «تسود عليها».

هناك، إذن، شيء واقع قبل «تقدمة» قاين وبعدها؛ بل هناك تأزم أو امتحان، لا بين قاين وهابيل، بل بين قاين والرب. وهو ما يقع في أساس المقتلة. وهو ما يمكن طرحه في السؤال التالي: أما حصل بين الرب وقاين نزاع هو أقرب إلى امتحان آدم وحواء مع الشجرة؟ ففي حوارهما ما يشير صراحة إلى «خطيئة» ممكنة، إلى «شهوة» «ينقاد» إليها الضال، و«يسود عليها» من يكون صالحاً في عين الرب.

آدم عصا نهي الرب، أما قاين فماذا عصا؟ ماذا كان سبب تمرد قاين؟ ألا يكون سبب رضا الرب على هابيل هو «إطاعته له» وحسب، لا ما قدمه له؟

ففي تمرد قاين ما يدعو إلى أن نراه بعينين إنسانيتين... يبدو أقرب إلى أسئلة الإنسان، إلى طيشه، إلى تبرمه مما هو ممنوع عليه... ألم تلحظ أن ذرية قاين هي الرائدة في مهن إنسانية لافتة؟ فواحد هو «أبو ساكني الخيام ومتخذي المواشي»، وآخر «أبو كل عازف بالكنارة والمزمار»، وثالث أول «صيقل لجميع المصنوعات النحاسية والحديدية»... ألم تنتبه إلى أمر آخر، وهو أن هابيل كان راعياً وحسب، أي أشبه بالعاطل من العمل؟ ألا ترى أن قاين عمل في الأرض، في استصلاحها، في زرعها؟ لقد كان عاملاً منتجاً، من دون شك.

ألا ترى أن قاين هو أقرب إلى أن يكون آدم البشرية؟ فهو الذي أنجب أولاداً، على أي حال، لا هابيل.

ألا تراه أجدر بأن يحمل أسئلة عشيتنا القلقة، وبأن يرفعها ويدفعها من أجل أن ينبلج الفجر الإنساني؟

ألا ترى أن «علامته» لا تدل على «شقائه»، بل على عمله الشاق، وعلى توليداته وإنتاجاته فوق الأرض؟

على أي حال، أجدني أقرب إليه، إلى حزنه وتعاسته، بل إلى تمرده وتوليداته، بدل البلاهة العمياء التي لأخيه — لهذا المطيع الممتثل لما يطلب منه، لهذا الناجح من دون جهد؟ ألا ترى أن هابيل هو أقرب لأن يكون تلميذاً مطيعاً من دون أن يكون نجيباً بالضرورة؟

ملاحظة أخيرة: عدتُ إلى القرآن الكريم، ووجدت أن لهابيل كلاماً فيه هو من أبلغ ما ورد فيه.

مع تحياتي.

— يعنيني، بداية، حضرة المؤلف (أسميك: «المؤلف»، لأنك لم تراسلني في شأن عائلي)، أن أشكرك على مطالعتك التي شئتَها أدبية فيما هي فوتت فرصة أن تكون مبتكرة، على ما سأظهر لك.

أعترف معكَ بأن حكاية قاين وهابيل تستحق أكثر من قراءة. إلا أن ما قلتَه فيها قال بعضَه غيرُك أثناء التمرين المسرحي وخارجه؛ أما ما فاتك، يا حضرة المؤلف، فمرعبٌ، من دون أي مبالغة.

قصة أو سيرة قاين ليست مهمة أدبياً، بخلاف ما تظن، بدليل أنك رسمت من دون جهد معالمها التأليفية. هذا ما انقاد إليه غير أديب، ممن تجد أسماءهم في كتب التاريخ الأدبي، لا في كتب النقد الأدبي. أهناك أحد غيرك يتذكر قصيدة فيكتور هيغو؟ وأنت تذكرها، بالمقابل، لأنك درستها في الثانوية.

بهذا المعنى، قصة قاين مكتوبة، وأنتَ سارعتَ إلى انتهاج مسالك المعاني العريضة والمعبدة؛ وهي لا تعدو كونها، كما ترد في «العهد القديم»، قصة الظافرين. ألا تقول مثلما قال غيرك بأن التاريخ يكتبه الظافرون؟

قاين، الابن البكر، كان ظافراً بدوره، وأستعيرُ من كلامك ما يدل على ذلك: «لعله لم يمتْ بعد...». لم تُهزَم سلطة البكر، بل جرى تثبيتُها، لأول مرة، وهي أساس بناء العائلة والسلطة، أليس كذلك؟ بل أذهبُ أبعد من ذلك: لعله هو الذي كتب السيرة الواردة، ولكن بعد أن حمَّلها بعض الجوانب الإنسانية لكي تصبح على قدر من التوازن. قاين ربح، ولا تكفي العلامة التي على جبينه لكي نتغافل عن أن شقاءه المزعوم لا يعدو كونه حياته الحافلة، ما جعله واقعاً، وكما تقول: «آدم البشرية»، أو جدَّها الأبعد، كما أقول.

يؤسفني، حضرة المؤلف، أنك لم تلحظ أن سيرة هابيل لم تكتب بعد، وأنها الأجدر بالاهتمام، الأدبي كما الإنساني.

يؤسفني، حضرة المؤلف، أنك تنحاز — من حيث لا تدري ربما — إلى الخطاب الظافر، إلى الخطاب المكرس، وتغفل عن إمكانيات القول في الخطاب الغائب، عن قابلياته الأدبية الواسعة — وهي إمكاناته الإنسانية بالتالي.

ألم تلحظ — والنص بل الترجمات المختلفة بين يديك — الصفات المتعددة التي ترسم هيئة قاين، فيما لا يحظى هابيل إلا بصفة واحدة: الطاهر الصامت؟ ألم تَكتب ذات يوم — لعلك نسيتَ — أن العباقرة لا يستثيرون إعجابك، بل الذين يكدون ويجهدون في أعمالهم؟ لعلكَ نسيت تبرمَك من رامبو، وقد «أقفل كتاب الشعر» قبل أن يبلغ العشرين من عمره! لعله غاب عن بالكَ تذمرُك من موزار الذي نشرت تآليفه الموسيقية الأولى وهو في السابعة من عمره، وشرع في تأليف أول «أوبريت» وهو في الحادية عشرة!... لعلكَ لم تنتبه إلى ما في سيرة هابيل من إمكانات تعبيرية؟!

أما استوقَفَك صمتُ هابيل؟ ماذا كان له أن يقول، إذ ينقاد خلف أخيه من دون أن يقول؟ لا أخالك تخلط بين الصمت الأبكم الأبله وبين الصمت الضاج والمنير.

ألم يخطر على بالكَ — وأنتَ الرائد، المتنصت لدبيب المياه الجوفية — أن تسترجع حقيقة الصفات كلها التي أسبغَها النص على قاين: لماذا له أن يقتل؟ أيكون شديدَ النزوع إلى الموت؟

ألا تتساءل — مثلما لا أتوانى عن التساؤل — ما إذا كان قاين «ينتقم» من أخيه، من مآثره، من تفوقه عليه أمام أبيه، أم أنه «يعوض» عن فعلته الشائنة، عاملاً على تحسين سيرته القبيحة السابقة؟ ألم تنتبه إلى أن صفات أحفاد قاين البناءة لا ترد في النص إلا بعد المقتلة؟ ماذا كان يفعل قبل ذلك؟ أكان يعمل فعلاً أم كان يراقب هابيل وهو يعمل؟

سيرة هابيل — على ما أدافع — تستحق راوية لها، وإعادة كتابة لها؛ تستحق شيئاً أفضل من بلاطة القبر الرخامية، التوراتية.

ما يعنيني منها مختلف؛ وهو يؤرقني.

لكَ — لو تتمعن في المشهد — أن تتبع خطى هابيل قبل المقتلة؛ فهي ثقيلة، رازحة، كافية لأن تمكنه من الهرب — لو شاء —، ومن إعداد المواجهة — لو شاء —.

لك — لو تتمعن في المشهد — أن تتساءل عن انقياد هابيل إلى المقتلة بهذه السهولة... المريبة.

لكَ أن تتأكد — لا أن تتسرع في القول — من ارتجاف الخطوة قبل ثباتها، ومن اللوعة في العينين قبل تسليمهما بالوجهة الغاشمة.

لكَ أن تسأل عن الدموع التي غارت في مآقيه، وعن النشيج الذي تبدد في سعاله.

لكَ أن تسأل عن المحبة التي يحملها لأخيه، فلا يرد له طلباً، ولو كان الصعودَ الأليم صوب المذبحة.

لكَ أن تسأل عن ساعات اللهو المشتركة بينهما، عن الدفء الهانئ قرب الموقد، عن النية الطيبة التي نَمَتْ بسرعة أكبر من الأشجار التي زرعاها معاً، أو هذا بالنيابة عن ذاك، أو عن الأكاذيب البريئة التي تدبرها هذا لذاك، أو عن قاين يتكلم بلسان هابيل، أو عن هابيل يتكلم بلسان قاين، أو عنهما معاً يختفيان بالتواطوء عينه الذي لهما حين يعملان بالتصميم عينه مثل ساعدين لجسم واحد.

لكَ أن تسأل، بعد هذا وغيره الكثير: كيف مشى هابيل خطواته الأخيرة؟ كيف له — وإن شَكَّ في سلوك أخيه أكثر من مرة — أن لا ينقاد إليه بطمأنينة الأخ لأخيه فوق مخدة نومهما الواحدة؟

لهذا لم يُقتل هابيل، بل أغمض عينيه قبل أن يغفو.

لهذا يعنيني، حضرة المؤلف، بعد الاعتذار من الإطالة، أن أقول لك بأن هابيل لم يتكلم بعد، وبما يكفي؛ وما وردَ عنه في القرآن الكريم لكَ — أنتَ — أن تتمعن فيه ملياً: «من قَتلَ نفْساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتلَ الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»؛ أو في هذه: «لئنْ بسطتَ إليَّ يدَكَ لتقتلَني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلَك».

ملاحظة أخيرة وجانبية: لم أستغرب وقوفَكَ إلى جانب قاين، فأنت تهوى قصص النجاح، وإن الدامي، حتى أنك لا تلتفت — لانهماكك بمتابعة نجوم السعد — بما يجري حواليك.

محبتي، في انتظار أن أراك.

— بعد اطلاعي على رسالتك، وبعد اطلاع سكرتيرتي على ما سبق أن كتبتُ، أفادتني بأن كاتباً أميركياً، جون شتاينبك، كتبَ رواية ضافية مستوحاة في أساسها من قصة قاين وهابيل، وهي بعنوان: «في شرقي عدن». ولقد قامت بتلخيصها لي (لأنني لا أحسن قراءة الإنكليزية، كما تعلم)، بل قامت بترجمة بعض صفحاتها حيث يتركز الحديث على القصة التوراتية.

أحتفظَ من هذه الرواية بتفسير أعجبني، وهو أن الصيني «لي» — وهو العليم فيها — يقول، بخلاف ما تقول، بأن من كتب «سفر التكوين» ليس «الظافر» أبداً، وإنما الراعي، وأنه كتبه لرعاة بدورهم: ألا يعقل أن يكون ربُّ الرعاة فضَّلَ نعجة على نبتة؟ هذا ما وضعني أمام خيار، وانحزت فيه إلى قاين، لأنه عملَ؛ لا إلى هابيل، الذي رعى القطيع و... نام أثناء ذلك، على ما أظن.

ملاحظة أخيرة: عُدتُ — في جملة ما عدتُ إليه — إلى نسخة قديمة من «العهد القديم»، تعود إلى العائلة، على الأرجح. النسخة من دون غلافها السميك، ما جعلني أجد صعوبة في قراءة الأوراق الأولى، المهلهلة منها، وهي التي تخص قصة الخلق الأولى. كنتُ أقلب النسخة بعناية فائقة، وأنتبه إلى أن هناك خطوطاً عديدة تناوبت على كتابة جمل أو تعليقات مقتضبة على جانب الأوراق: ألا تكون قد كتبتَ بعضها؟ إلا أن ما أثارني، ما إن قرَّبتُ الكتاب إلى عيني، لرؤية مناسبة لحروفه الدقيقة، هو رائحة التبغ القوية التي كانت تنبعث منه: رائحة بل روائح مختزنة لقارئيه الكثر والمتباعدين، ما دعاني إلى التفكر ملياً بما قرأته لشتاينبك: «ليست لأي سيرة قوةٌ، وهي لا تخلف أثراً، إلا إذا شعرنا بأننا المقصودون فيها. يا للحمل الثقيل، حمل الشعور بالذنب، الذي يحمله البشر (فوق كواهلهم)»: أقرأتَ هذه الرواية؟

مع تحياتي.

— شكراً، حضرة المؤلف.

نعم قرأتُ هذه الرواية أكثر من مرة، وعدت إلى قراءتها من جديد بعد إشارتك إليها.

توقفتُ بدوري عند الجملة التي نقلتَها، إلا أنني أضيف إليها غيرها، المجاور لها، من دون أن أعرف ما إذا كانت سكرتيرتك قد ترجمته لك أم أنك أهملتَه: «إن الرعب الهائل الذي يشعر به الطفل هو شعوره بأنه غير محبوب: أخشى ما يخشاه أن يشعر بأنه مُبعد. كل منا عرف مثل هذا الشعور بمقدار كبير أو أكبر. من هنا ينشأ الغضب، والغضب يقود إلى جريمة ما للانتقام، ومع الجريمة يحصل الخطأ: هذه هي قصة الإنسانية».

لعلنا نقرأ — أخيراً — في الكتاب عينه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لماذا رفضتَ المجيء إلى بيتي؟

— لماذا رفضتَ المجيء إلى بيتي؟

— لماذا امتنعتَ عن رؤيتي في السابق؟

— لا جواب.

— لكنك لا تجيب عن سؤالي.

— بلى، عدا أنني أسأل بدوري، وقد لا أجيب.

أنتَ تتكلم وأنا أتكلم أيضاً.

— لماذا قبلتَ اللقاء بي سراً؟

— سراً!؟

— أي في مكان غير مكشوف.

— لكنك أتيتَ بآلة التسجيل، من دون شك.

— طبعاً.

هل اقتنعتَ بما قلتُه لك عن هابيل؟

— دعني من هذا الموضوع البالي.

— إلا أنه أثار حماستك الكتابية على الأقل.

— كما لو أنكَ تدعوني إلى صومعة، على أن أجد في نتف وأوراق ما يجعلني سعيداً، فيما يكفيني أن أخرج إلى الشرفة، لرؤية حديقة جاري، وأن أتمتع بمرأى الرمانة التي تزدهي برونق ثمارها.

— ألا تجد في صمت هابيل موضوعاً أدبياً مثيراً؟

— لا، هو مثير لأعصابي فقط. وأنا متضايق لدخولي معك في هذه المحاورة.

— ألا ترى أنها تقع في صلب حوارنا الممتد؟

— لا.

لماذا تريد أن تخرج من الكتاب العتيق لكي تحسن الكلام؟ ألا تحسن حواراً معي إلا على مسافة ملايين السنين؟ أتحتاج دائماً إلى وساطة معي؟

— معاوية فعل هذا!

— أتستدعي معاوية أيضاً؟!

— طبعاً. ألا تعلم أنه كان يطلق قافلة من الشام إلى البصرة للتحقق من تفسير حديث نبوي عند علمائها؟

— ما أعرفه هو أن معاوية كان يحتاج إلى أكثر من قافلة لكي يتدبر تغطية لتسلمه للحكم.

— لكن معاوية...

— ... لو كان لي أن أتبعك في مسعاك لقلتُ لك ما قاله محمد بن سيف الدين بن أديمر...

— ... من هو؟

— كاتبٌ من مواليد بغداد في العام ٦٣٩ للهجرة، ولقد كتب في «الدر الفريد وبيت القصيد»: «لا تنظر إلى من قال، انظر إلى ما قال».

— أهو الذي قال أم غيره؟

— لا، هو.

— أين وجدتَ هذا؟

— في مخطوط، في «المكتبة السليمانية»، في استانبول.

— عما كنا نتكلم؟ لقد أضعتني...

— أنتَ أضعتنا: تعود بنا إلى «سفر التكوين»، أو إلى حلقات علماء البصرة...

شكراً على مادة التسجيل، إلا أنه غير مأذون.

— لا يهم. المهم أنه حصل. أنتَ لا تستطيع نكرانه.

أعود إلى سؤالي: لماذا قبلتَ اللقاء بي؟

— ولمَ لا؟

— سنوات وسنوات من دون أن تظهر لديك هذه الرغبة.

— لو التقيتُك في الشارع لما عرفتُك. أتعرف؟

— لي أنا أن أقول هذا الكلام... أنتَ رأيتني في المرة السابقة، لا أنا.

— لكنك سمعتَ صوتي.

— لماذا حلقتَ اللحية؟ كيف تخليت عن النظارة الطبية؟

— أنأتي بثالث للكشف علينا؟

— أنا الذي بادرتُ إلى هذا. لي الحق في ...

— ... هذا صحيح. ماذا تريد؟

أيريحك هذا الرواح والمجيء في هذا المكان الضيق!؟

— أنا اخترتُه. هكذا لا تتحاشاني.

— اضطررتُ إلى قبوله.

— هذا أنسب للاعتراف.

— أي اعتراف؟

ما الذي دعاك إلى أن تقرع على بابي؟

— لك الحق في أن تسأل هذا السؤال.

— ولماذا هذه القطيعة؟

— سبقْتني... كان لي أنا بالأحرى أن أطرح السؤال: لماذا هذه القطيعة؟

— انشغالات وأسفار، ليس إلا.

— هذا جواب دبلوماسي. هذا جواب صحافي.

— وماذا تريد؟

— جواباً مناسباً، تبعاً لما كنا عليه.

— الأيام فرقت بيننا.

— لكنني عثرت على أوراق واعترافات تفيد بغير ذلك!

— عمّ تتحدث؟

— أتريد أن أقرأ؟

— إن شئت.

— سأقرأ: «أنا الناقص دوماً، المختفي، المحتجب، الخارج من الإطار، إطار الصورة العائلية. كأن أقول أمام صورة: «كنتُ أقف هنا، أو أجلس هناك»، فيما يشير إصبعي إلى مساحة فارغة، شاغرة، على أحد جوانب الصورة. دوماً لستُ في المشهد. دوماً في مكان آخر، غير الذي يجري فيه الحدث.

«هو» كان يسبقني دوماً...»

— من «هو» هذا؟

— أنا الذي لي أن أسألك: من تقصد ب«هو» هذا؟

— أنا لم أكتب هذا.

— بلى. وجدتُه في دفتر قديم.

— ربما، لكنه ليس في عداد ما نشرتُ.

— أنا سأذيعه. سأستمر في القراءة:

«كان يسبقني إلى الإجابة، عندما يهز رأسه تأييداً أو طاعة، فلا يبقى لي غير التراجع، غير الاعتذار، كمن يبلع كلمته، فلا يقولها. «هو» كان يفاجئني دوماً بسرعته، فيما كنتُ أتأخر في الوصول. إذا كان في المرات الأولى قد ركض لكي يسبقني، فإنه في المرات التالية لم يعد يضطر إلى ذلك بتاتاً. فأنا صرتُ أتماهل في اللحاق به، قبل أن أتوقف تماماً عن ذلك. فقط كنت أعزي نفسي بالقول: يوماً ما حين سأخرج من الصورة، من ضرورة الإجابة... يوماً ما حين سيكون لي بيت خاص بي لن أُسكنه معي».

لقد فعلتَ ذلك فعلاً.

— عمّ تريد أن تتحدث؟

— ألم تُقدم، بمجرد دخولك إلى الجامعة، على استئجار غرفة سكن خاصة بالطلاب؟

— هذا طبيعي، أليس كذلك؟

— ما لم يكن متوقعاً هو ما كتبتَه بعد ذلك.

— ماذا كتبتُ؟

— سأستعيد القراءة، إن شئتَ.

ها أنتَ — أخيراً — لا تتنكر لما كتبتَ.

— توقفْ عن تسجيل النقاط.

— سأقرأ:

«يوماً ما حين سيكون لي بيت خاص بي لن أُسكنه معي. لكنني ما إن فتحتُ باب الغرفة وجدته مستلقياً على فراشي. يومها تركتُ الغرفة غاضباً. صار يلاحقني في الشوارع، حيث كنت أتحقق من هزال مراهنتي القديمة. لم تعد تجدي مغادرة الغرفة، ولا الانتقال، أو مشاغلة أحدهم في حوار... صار يلاحقني كأنه الدائن بعد فوات أوان الدفع، وكأنني المستدين معترضاً على قيمة الدفع، بحجة أنه وقَّع على السندات في لحظة شرود، في غفلة عن النفس. فقط كان يقتصر حوارنا العلني على بضع كلمات، على شتائم.

كنتُ أُنكره، وكان يتوعدني. أتبرم منه، ويعرفني.

بعدها لم يعد يصرخ أو يحاور. صار يكتفي بمرافقتي. صرت أتجاهله، وأعتاد عليه. كان يكتفي بنظرة حزينة كأنها تقول: أهكذا إذن!

وفي مرة بكى. لم يتهدج بالدمع. سقطتْ منه دمعة واحدة. سقطت مكتملة. غير متقطعة أو متشنجة. سقطتْ ناضجة، دفعة واحدة، كثمرة. أرخى دمعته، واختفى».

لا، لم أختفِ. ها أنا.

— لكنك لم تبكِ.

— غار دمعي منذ زمن بعيد.

— مثل النبع.

— تماماً.

— أفي ما قرأتَ ما ضايقَك؟

— هناك أفظع من هذا. هناك الرصاصة المسددة صوبي.

— عمَّ تتكلم؟! هذا غير صحيح!

— أنسيتَ أم تتغابى؟ أيكون الأدباء على هذه الصورة: يكذبون فيما يكتبون، يكذبون فيما يتكلمون، يكذبون فيما يعيشون؟ متى يعيشون حقاً؟ متى يصدقون القول؟

— قد لا تكون النسبة دقيقة.

— صَحِّحها، إذن.

— وما الفائدة من ذلك؟

— ما يعنيني هو أن أحتفظ بحصتي... أريد حقي.

— من قال لك إنك المقصود؟

— أنا عشتُ الوقائع بنفسي.

— لو لم تقلْ هذا الكلام، لو لم تقرأ هذه الورقة، لما عرفَ بها أحد.

— هذا يرضيكَ أنت، لا أنا.

— ألهذا استعنتَ بأحدهم؟ أهو الذي أتى بها؟

— من أخبرَك بهذا؟

— هذا صحيح، إذن.

— هي فسحتي. شئتُها كذلك.

— ها أنت تلعب بدورك. ها أنت تكذب بدورك.

لماذا قمتَ بهذا؟

— لأنني غضبتُ مما قرأتُ...

—... فقط؟

— ومما لم أقرأ.

— ماذا قرأتَ؟

— أتريد أن أعيده على مسامعك؟

— لعلك تدبرتَ أوراقاً على أنها مما كتبتُ.

— لا، لست مزوراً أبداً. لقد وجدَها بين أوراق خاصة.

— أين وجدها؟

— في بيت العائلة، في دفتر أزرق. أتذكره؟

— لعلك تسرد واقعة صحيحة. ولكن ماذا عن الرصاصة؟

— أنت أطلقتَها.

— عمّ تتكلم؟

— أتريد أن تعرف؟ أتريد أن تسمع؟

لا تقاطعني — أرجوك — مهما سمعت:

«بعد عدة أسابيع على «الحادثة» قررتُ كتابتها، وأنا أعرف تماماً المنزلقات التي تهددني. فقد بتُّ مقتنعاً بأن ما حدث لا يمكن تجاهله، أو نكرانه، ولا يمكن اعتباره في دائرة الأحداث غير الأنيسة. لكنني فعلتُ كل شيء للتهرب من هذا، للتهرب من أن أبقى وحيداً (فيما كنتُ لا أسعى قبل «الحادثة» إلا إلى الانفراد). كنت أنسى «الحادثة» وأتجاهلها لتعود: في لحظة أتوقف فيها عن قراءة جريدة، أو عند انتظار صديق في مقهى... كنت أتهرب كمن فاجأ صديقاً في وضع مشين، فيتهرب منه أو يشيح بنظره عنه.

لا، لم أكن أتهرب. أكنتُ جباناً وخائفاً؟ طبعاً، لكنني لم أكن أولي الأدبار كالخائف المذعور من فعلته، بل كالخائف المتيقظ. أعرفُ أن الرصاصة لم

تنطلق بالخطأ. إلا أنني اضطررت لذلك أمام المواجهة الحاسمة، غير المتوقعة على أي حال...

إذن رحتُ أتراجع وأتقهقر من دون أن أولي ظهري للضحية. تراجعتُ ببطء، بحيث أنعمت النظر في وجهه. الغريب أن دماً لم ينفر. فقط جلس فوق الأفرشة وراح يبكي، كورقة الاعتراف التي تمحي حروفها أو تتموّه لسقوط دمع الكاتب فوقها.

كنت خائفاً وجباناً، بحيث كنت أمتنع واعياً عن استعادة المشهد كاملاً. كمن يتفرج مستريحاً في مقعده على فيلم صوره بنفسه عن نفسه. لستُ بهذه الشجاعة، وفي الأمر رصاصة وورقة غير مثقوبة.

إلا أنني، ككل جبان وخائف، كنت أعود إلى المكان عينه. كنت أكتفي بالاختفاء خلف حائط، للحظات، والتلصص عليه: جالسٌ فوق الأفرشة يبكي؛ عيناه زائغتان، وحائرتان. ماذا يفعل طفل عند ضياع من يرافقه في الليل غيرَ الانتظار الباكي؟ ماذا يفعل ممثل فوق الخشبة — إذا رفض الكاتب إكمال الدور غيرَ الجمود وفق إشارات آخر مشهد مكتوب؟

مرة أتيتُ إلى المكان في النهار، فوجدتُه أيضاً يبكي. إذن، كما في الليل. المقدار عينه. الشكوى ذاتها. ضجرتُ منه. لكنني عدتُ في اليوم التالي من دون أن أتقدم أي خطوة صوبه، من دون أن أفارق حائط التلصص.

منذ تلك الليلة، منذ «الحادثة»، حركة شفتيه لا تفارقني. أتذكَّرُ ثيابه، لكنني أحتفظ بصورة شفته السفلى وهي تباشر الضغط على شفته العليا، في اللحظة التي تسبق انفجار البكاء. صورته هي صورة «الموناليزا»، ولكن بالمقلوب: هناك مشروع ابتسامة، وهنا مشروع بكاء. هناك ابتسامة تلقائية، من دون جهد، وهنا صورة شفتيه المرتبكتين. ألا يمكنه فعل أمر آخر؟».

بلى — اسمح لي، يا حضرة المؤلف — يمكنني فعل أمر آخر.

— ماذا؟ أأن تصبح بدورك كاتباً؟

— ربما. أو سينمائياً.

— ماذا كنتَ فعلتَ؟

— لو كان لي أن أصور هذا في فيلم، لكان على الكاميرا أن تجتاز لثوان مساحة سوداء، لا تلبث أن تتكشف تحت ضوء يتصاعد تدريجياً؛ لكُنّا تبينا مدرجاً تختفي درجاته السفلى في الظلمة؛ لكان على الكاميرا أن تنتظر لثوان قبل أن يظهر وجهي، بحركة بطيئة، من عمق العتمة.

وجه يولد بمجرد تماسه مع الِضوء.

وجه يرتدّ، يحني رأسه ارتعاباً من ظهوره المفاجئ، من سطوع الضوء.

وجه يتسلق الدرجات، من دون أن نتبين بقية الجسم.

وجه من ضوء وجسم من عتمة: بمقدار ما يتقدم الوجه، يقوى لمعان الضوء.

— لماذا لم تنشر هذا؟

— أنا أتكلم وحسب.

— لا، أنت تعيد على مسامعي ما سبقَ أن كتبتَ.

أكررُ ما سبق أن قلتُ: لم أنشر ما قرأتَ على مسامعي. فلماذا الغضب؟

— لا يتملكني الغضب تماماً، بل ربما حسرة ما.

— علامَ؟

— على ما تكتب.

— أنت متردد — على ما ألحظ — في ما تقول.

— لا، أنا أقيم في التردد — إن شئتُ استعمال طريقتك في بناء الجمل.

— أهذا هو انتقام هابيل المؤجل؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— لا زلتَ تشرب القهوة من دون سكر.

— نعم.

— مثل الوالد...

— ...

لماذا اخترتَ هذا المقهى؟

— كان لي أن أختار، أليس كذلك؟

— نعم. إلا أننا نسمع هدير الأمواج أكثر من أصوات الزبائن. أتسمعني؟

— ألا تزال تتجنب البحر؟

— ألا تزال...؟ ألا تزال...؟ أليس لكَ ما تقوله لي غير أن تتحقق من أنني لا أزال كما كنتُ!

فعلاً، لا يزال البحر منظراً رتيباً... وهو ما أطلّ عليه من الشرفة، ليس إلا.

— لعلك مثل جبران.

— جبران!؟

— كان يكتب عن المزارعين فيما كان ينظر من النافذة إلى عمال مصانع السيارات.

— شكراً على هذا المديح... المردود، إذ وصل إلى عنوان خاطئ...

— ... مع أنك عشتَ على مبعدة عشرات الأمتار من البحر.

— بل على شاطئه، في الطفولة الأولى.

— لما حملتكَ الزوبعة...

— ... لما طرتُ على أنها من عجائبي الأولى.

— طرتَ مثل الراهب من سطح إلى آخر.

— طرتُ على الرغم مني.

— لأنك تعنى بإنزال قدمك بتؤدة قبل أن تصبح خطوتك.

— هذا من باب الحرص، لا الخشية، كما تعتقد.

— لهذا أدرتُ ظهري ومضيت.

— كان لكَ أن تستمع لما كنتُ أقوله لك.

— استمعتُ إليه مراراً وتكراراً.

— مني؟

— منك ومن كثيرين... وهذا لا يعود إلى الأيام التي تبعت دخولي إلى الجامعة، كما تظن.

— ماذا تقصد؟

— أتَذْكرُ لما ذهبتُ إلى نهاية الشارع، إلى بيت الكردية هِيرو؟

— أكنتَ تعرف اسمها؟

— نعم. أكان لي أن أطلب تأشيرة سفر للانتقال عشرين متراً؟ وللدوار حول سور الحديقة والتمتع برؤية التنانير المزركشة المتراقصة؟

— سمعتُ عنها.

— أنا قصدتُها.

كانت التنانير تعلو بنظري أعلى من طائرة الورق الملونة فوق سطح البيت.

— لماذا تشدد على هذه الواقعة؟

— يومها اختبأتَ... وقفتَ خلف الستارة، بين الصالون والحمام، تتلصص على الوالد وهو يضربني.

— لكنني لم...

—... أَتعْلم أنني بدل أن أتوجع شعرتُ يومها أن جلدي يقسو؟

كان يكفي أن يربت كتفكَ، أن يقول لكَ كلمة لطيفة، لكي تسكت.

— لكنني لم أخبره بشيء... كنتُ أراجع دروسي في غرفة أخواتي.

— لا. كنتَ تتحين الفرص، وتتفقد محفظاتهن، لسرقة خمس أو عشرة قروش.

— عيبٌ أن تقول هذا الكلام!

— لهذا مضيتُ من دون أن ألقي نظرة على الوراء.

— أيمكننا مغادرة المقهى؟

— أتريد أن نتوقف عن الكلام؟

— لا، أن نغادر المكان.

— ماذا لو نجلس في الجهة الأخرى من المقهى؟

— أين ذلك؟

— في الجهة التي تفضي إلى جادة المتنزهين.

...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— هل ارتحتَ؟ ها أنت تدير ظهرك للبحر.

— لكنني متفرج أمام شاشة كبيرة.

— أليس في ما ترى ما يغني عن إغماض العينين، عن تذكر مشاهد بالية، ساقطة إلى الأبد؟

— لا، لم تسقط؛ لا يزال رنينها يصاحب أي موسيقى أستمعُ إليها.

— اسمعْ. انظرْ...

أترى صاحب الكرة الصغيرة الحمراء؟

— عمن تتحدث؟

— عن ذاك الذي يمسك بذراع السيدة ذات الثوب الأزرق قرب عمود الكهرباء.

— ما له؟

— أتعلم أنه ليس صاحبَها؟

— كيف عرفتَ ذلك؟

— انتبهْ... ها هي تنتبه الآن، بعد سماعها لقهقهات الجالسين معنا، إلى اليد التي تمسك بيدها... إلى أنها ليستْ يد صاحبها.

— وأين مَن كان معها؟

— توقفَ عند الحافلة الصغيرة تلك لشراء كوب عصير.

— ومَن صاحب الكرة الصغيرة الحمراء الذي أمسكَ بيدها؟

— ممثل جوال.

— كيف ذلك؟

— يكفي أن يضع هذه الكرة الصغيرة على أنفه لكي تدرك بأنه ممثل.

— كيف يمثل؟

— يتصيد زبائنه في حشود العابرين المتنزهين اللاهين...

هكذا ينتظر أحدهم — كما الآن مع العجوز التي تجر أمامها عربتها الخشبية —، لكي يتبعه، خلفه، مثل ظله، مقلداً إياه في مشيته، إلى أن ينكشف المقلب.

— أنت معتاد على هذه المشاهد، على ما ألحظ.

— نعم.

— ماذا يُغريكَ فيها؟

— تغريني حالات الانزلاق والالتباس بين الممثل والعابر... هكذا تبدو الحياة — ولو للحظات — عبوراً، انتقالاً، أو شروداً.

— لا، العابر لا ينتبه إلى ما يحصل له؛ وهو ممثل رغماَ عنه.

— لكن الممثل يقول لنا إننا لاهون عن أنفسنا في نهاية المطاف، على الرغم من جديتنا الظاهرة وتصميم حركاتنا.

— لعلك تريد إبلاغ رسالة من هذا.

— يؤكد لنا هذا الممثل، في كل من مقالبه، أننا قادرون — لو شئنا طبعاً — أن نزيح عن الدرب، أن تكون لنا مشية مختلفة، وأن نرى بعيون جديدة، أي يقظة، ما يحيط بنا.

— لعلكَ تكتب فيما تتكلم... أَسَبَقَ لكَ أن كتبتَ هذا؟

— لا، لكنني قد أكتبُه لاحقاً.

— هل انتهيتَ؟

— لا. فقط أريد أن أقول إن حركة هذا الممثل — أتراه الآن كيف اندس بين الحشود لكي يتدبر مقلباً جديداً — تفضحُنا في وضح النهار، وأمام مرأى الجميع. تؤكد لنا حركتُه، فيما هي تقلِّدنا، أننا نحاكي صورة ماضية، مشيةً سابقة، انحناءةً ما معروفة للجسم، حتى أننا نبدو مثل بشر آليين.

— توقفْ عن وصفي، أرجوك.

ها أنتَ تتحدث عن مشيتي، عن ألمي في الظهر بالأحرى.

— لا، كنتُ أتحدث عن الانزلاقات الممكنة — الحيوية — التي نتجنبها في كل لحظة.

— ماذا لو تتمشى مثل هذه الصبية اللاهية عنه بجهاز التسجيل الذي على أذنيها؟ ألن ينجح في استغفالك مثلها؟

— ربما.

— أأنا الجبان دائماً وأنت الشجاع!؟ أأنا السارق وأنت الأبي!؟

أنت ظالم.

ها أنت تضعني من جديد فوق الأفرشة، لكنني لن أبكي.

— ...

— لا، لم أبكِ، مثلما كتبتَ.

لم أبكِ من الوجع، بل من الفقدان: من أن تبتعد عني، من أن تواجهني، من أن تبقيني على الرصيف وحدي، ذليلاً من دون هالة فوق رأسي.

— مِن دُونِها فعلاً؟

— بقيتْ لي هالة أخرى... هالة من الشك والاحتقار.

— لكنني لم أرها.

— ذلك أنها لا تظهر في العتمة.

— أنتَ تعلم أنني ترددتُ كثيراً قبل أن أدرتُ ظهري... ما عدتُ أقبل التخفي خلف حكايات مستعارة، مزيفة، أقولُها لهذا وذاك في حوش المدرسة، في الأعياد، في العطلة الصيفية... وما عدتُ أطيق النوم على كنبة...

— تخليتَ عني!

— أتَعْلمُ أنني لا زلت حتى اليوم ألتهمُ الأكل بدل أن أمضغه؟

— لماذا؟

— أنسيتَ الخشية من أن لا يبقى لي في الصحون ما يكفي؟

— ...

— أتعلم أنني لا زلت حتى اليوم لا أُبقي شيئاً من الطعام في صحني؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— يبقى أن أقول لكَ شيئاً أخيراً: الرصاصة لا توجعني؛ ذكراها هي التي توجعني.

الرصاصة تخصني، نَمَتْ في جسمي... حتى أن طبيباً — إن سألتُه — قد يفيدني بأنني قد أتضررُ إن نزعتُها.

— وماذا عن البكاء؟

— سبق أن قلتُ لكَ: جفَّ دمعي منذ زمن بعيد... حتى حين انطلقتْ الرصاصة لم أبكِ فعلاً.

كانت تنقصني الكلمات لكي أنجح في إيقافك...

لقد مضيتَ بعيداً...

— لم يبلغني صوتك؛ فقط صورتك لم تفارقني...

ماذا كان لك أن تقول لو تمكنتَ من القول؟

— ما قلتُه.

— أهو ما قلتَه معه؟

ألا تريد أن تقوله لي وجهاً لوجه؟ ألا تكون تخشاني؟

— لا، إلا أن الكلمات تنقصني بقدر ما تغريني.

— كيف ذلك؟

— حاولتُ أكثر من مرة، من دون أن أنجح.

كانت تعوزني الكلمات لكي أحسن الحديث عن ارتجافي قبل الدخول إلى الامتحان، وعن عيوني الكسيرة إذ آتي إلى الكنيسة، يوم الأحد، ببنطلوني الكحلي عينه...

— ها أنت تَذكرُها. ألا يكفي؟

— لا، أبداً، ما دامت الكلمات لا تمسك بيدي، لا تستعيدني، في تلك المنحدرات المعتمة...

— ... أي منحدرات؟

— كنت أريد أن أتفقدها مثل زائر، لا مثل نزيل مغلوب على أمره... مثل زائر له الحق في أن يتوقف، في أن يعود إلى الخلف، أو أن يسرع الخطى...

أتَذْكر القبو؟

— بلى. ما له؟

— أتذْكرُ كيف أصبحَ بيتاً أليفاً لنا بعد أن كان مأوى الحيات والعقارب وحكايات العفاريت والجان؟

أتذْكرُ كيف بتنا نتجول فيه — بخلاف نبيه وعصام وعارف وغيرهم — من دون خوف، في المواضع عينها التي كانت ترعب خطواتنا بمجرد وقوفنا على الدرجات الحجرية المعدودة التي كانت تفضي إلى بابه؟

— بلى، أذكرُ. ولكن ماذا تريد أن تقول؟

— لماذا لم تكتب عن الارتعاشات تلك ما دمت تتذكرها؟

— ها أنتَ تحاسبني من جديد.

ما كان لك أن تخاف بهذا المقدار.

— هذا ليس بجواب؛ أنا خفتُ... وما كنتَ إلى جانبي دائماً، كما في القبو.

لماذا لم تكتب عن تلك المنحدرات المعتمة؟ ألم تتدهور فيها؟

— بلى، أحياناَ. إلا أنني كنت تائقاَ إلى التخلص منها، إلى الهرب بأسرع ما يمكن، لا إلى الضياع فيها بحجة أنني لا أعرف منفذاً فيها.

— لم يكن فيها منفذ.

— بلى، كان يكفي — كما تعلمنا في المدرسة — أن نمضي في أي جهة فيها، كما في غابة، في طريق مستقيمة، لكي نخرج منها.

— أأنت شجاع وأنا جبان؟

— لا، كانت لغتُك البكاء: بها تحاور، بها تجيب، بها تحرد، بها تستدرج...

— ...

— بين يدي وثيقة دامغة ضدك.

— عمّ تتكلم؟

— عن ورقة كتبتَها بنفسك... عدتُ إليها للحديث عن البكاء فوق الأفرشة.

أتريد أن تسمع؟

— ...

— «فوق الأفرشة المتكدسة، في زاوية الغرفة، كنتُ أتكوم منكمشاً كالقطة المذعورة، أو كالدجاجة المبللة بالمطر، فيما كانت تصلني عبارات أخوتي المنددة بفعلتي، إذ إن أختي الكبيرة ضبطتني مع دعد تحت السنديانة... كنت أتكوم لعل جسدي الصاغر يوهم أخوتي بأنني مقدر لهول ما اقترفتُ...

بعد أيام على هذه، كسرتُ مزهرية في الصالون... كان ذلك يوم أحد، بعد القداس الاحتفالي. لم يجد والدي ما يقوله سوى الزعيق — كالعادة —، فيما كانت والدتي لاهية عني — كالعادة — بإعداد الأكل أو بغيره».

— لا، أنتَ الذي كتبها. أنسيتَ؟

— لا، لم أكتبها، لأنني هربت.

— ها أنت تعترف بأنك هربت.

— لا، كنت أتحين الفرص للخروج، لسكن مختلف.

— لي أنا أن أسألك: من أين أتيت بالمسدس وبالرصاصة؟

— وجدتُها في الطريق. وقعَ نظري عليها عندما توقفتْ البوسطة بنا في الطريق الصاعدة صوب القرية.

— كيف وجدتَها؟ لمن كانت؟

— لم أجدها واقعاً، لم أرها أساساً؛ كانت قد أُطلقت. فقط شاهدتُ أبي حانقاً، ويهرع إلى خارج البوسطة...

بالكاد كنت أستطيع الوصول بوجهي إلى الشباك الزجاجي. بكيتُ بمجرد أن شاهدتُ البيت تحتنا، بمجرد أن رأيتُ أحدهم فوق سطحه يحمل جسداً بقميص أبيض وعليه بقعة حمراء.

بكيتُ فيما كنت أنظر.

«لا تخفْ»، قالت لي أمي. سألتُها: «أين والدي؟ أهو القاتل أم القتيل؟». «لا، يا بني، لا يحمل والدك مسدسه»، أجابتني.

بكيتُ من جديد. بكيت بكاء صامتاً، من دون أن أقوى بعد ذلك على رفع صوتي. كنتُ أغمغم فقط: «هو القتيل، إذن!».

— لم تخبرني بشيء... غير أن صوتك علا بعد ذلك.

— لا، كان يعلو في سري، في فراشي، وحدي، مع أناس مختلفين كنت أستدعيهم وتدور بيني وبينهم جولات من الرصد والتخفي والمباغتة والملاكمة.

— لكن الوالد لم يمت: ممن كنت تنتقم؟

— كنت أدافع عنه.

— ممن؟

— ممن لا أعرف لهم وجوهاً...

كنتُ أتنصت على دعس خطواتهم الثقيلة. ما كانوا يتجاسرون على الدبيب إلا في الليل، لهذا طلبتُ من الوالدة تبديل مكان فراشنا، إلى جانب الحائط المفضي إلى الحديقة. كانوا سيجدون صعوبة في بلوغ البيت.

— لماذا؟

— أنسيتْ؟

كان عليهم أن يتسلقوا الأكاسيا العالية — وهذا صعب للغاية.

— ما بلغَنِي شيء مما تقول. أأنتَ تتخيل أم عشتَ هذا؟

— بلغَتْني هذه الخطوات الليلية، بل ساكنتني في مدى، لي ولها. كنت أخشى من مجرد الانصراف إلى الفراش.

كنت أنساها في النهار، وتواعِدني فيِ الليل.

— تفاجئني في ما تقول. لا أذكر شيئاً من هذا.

— ألا تذكر العم حنا؟

— بلى.

— ألا تذكر صورته في الغرفة الخلفية، كاشفاً عن صدره، شاهراً مسدسه؟

— بلى. لكنها صورة مضحكة: كان يذكِّرني بالأطفال وهم يرفعون العلم الوطني ويلوحّون به.

— ألا تذكر مسدس الوالد، المسدس البلجيكي رقم ١٤، كما كانوا يسمّونه؟

— بلى. أذكرُه في علبته البيضاء.

— انتظرتُ أمي، ذات ليلة، لسؤالها ما إن أطلّتْ علينا لتفقدِنا قبل نومها: «أين يضع والدي مسدسه؟». لم تجب، بل صرفتني إلى النوم.

كررتُ سؤالي أكثر من مرة، من دون أن ألقى جواباً منها.

كنت أعلم بوجوده، من دون أن أراه.

لم يكن في مقدوري سؤاله عنه... حتى في اليوم الذي أتى فيه عدد من أقاربنا ومعارفنا لزيارتنا، كما لو أنه تم توجيه دعوة إليهم: أتوا لزيارته، واقعاً، للتعرف إليه، مثل مولود جديد في العائلة. كنا، بل كانوا متجمعين تحت شجرة الجوز، فوق النبع، وينظرون إليه هازين رؤوس التقدير.

لم أقوَ على رؤيته؛ كانوا يتناقلونه بأيديهم، بينهم، فيما أكتفي وأحصي همهمات والدي المغتبطة بما أُوتيَ له من اعتبار بين أهله.

— أنمتَ ليلتها؟

— لعلك لا تصدق ما أقول.

— تماماً. ذلك أنني أذكر المسدس، الذي كانوا يتناقلونه بين أيديهم، ولكن مثل تحفة تم اقتناؤها لحفظِها، لعرضها في البيت: علامة هيبة، في أحسن الأحوال، لا علامة قوة أو عنف، بأي حال.

— أكان وجوده مطمئناً أم مخيفاً لك؟

— أنا الذي تلقيتُ الرصاصة، على أي حال...

ألم تطلقها عليَّ بدلاً عن ضائع؟

— مَن تقصد؟

— الوالد طبعاً.

— ...

— حتى لا تخطئ الظن: لم يطلق الوالد رصاصة واحدة في حياته.

— ...

— عفواً، لا حاجة لأن تجيب، ولا لأن تسأل... أين يجري حديثنا؟

— أنت أدرى بهذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أتريد أن تعود إلى البيت؟

— أتريد أن تعود إلى البيت؟

— أتريد...؟

— ... ماذا تريد؟

— يكفيني أن نجلس معاً على الشرفة، كما اليوم.

يكفيني أن ترى بعيني المتأني إلى ما وضعتُ بين يديك، وأن ترى إلى الصور بتمعن.

— لماذا تريد أن تعود بي إلى حيث تخليت عن مريولي الأسود، وعن هذه الوقفة المطيعة، الصاغرة؟!

لماذا تريد أن تعيدني إلى تلك البوسطة؟ إلى ذلك الشجار الممتد؟

— لماذا لم تكتب عنه؟

تتذكرُه، إذن!

— طبعاً.

كبرتُ، بل علوت ذلك الشباك الزجاجي في البوسطة.

كنتُ أجتاز غرفة الجلوس مثل من يخترق حقل رماية. كما في مناورة حية.

— برصاصات فارغة، إذن؟

— لا، كانت محشوة بما كنتُ أحمله فوق ظهري، كما القتيل فوق سطح بيته، وأجرجرُه إلى فراشي، الذي تحول في مرات كثيرة إلى ما يشبه الكفن.

بلى، كان لي — ولو لمرة — أن أطلق الرصاص.

— لماذا سدّدتَها علي؟!

— لما كنتُ طفلاً كان لي أن أكسر المزهرية، في الصالون، لكي يلتفتوا إلي... لما كبرتُ أطلقتُها لتغطية خروجي وحسب.

— لكنها أصابتْني.

— لك أن تسأل السؤال بنفسك، وعلى نفسك: أأنا أطلقتُها عليك أم أنتَ اعترضتَ سبيلها؟

لا تنتظر مني جواباً.

— ...

...

— تعود وتسأل عن تاريخ هذه الصورة!

ماذا تعني هذه الأمانة، وأنا لا أتوانى عن الترحال، عن التنقل، عن ركوب طائرات حقيقية!؟

أنتَ بدورك تنقلت وسافرت وبدلت بيوتاً ومدناً. أما وجدتَ في هذا ما سَرَّك، ما أبعدك؟

— كان لي أن أطوي الصفحة.

— أطويتَها؟

— ليس بعد...

لا يكفي أن نطويها معاً، هنا، مثل دفتر قديم تضعه هناك على رف في المكتبة.

— ماذا تريد بعد؟

— أنت تعلم.

— لا أفهم المقصود.

— لك أن لا تخجل بي، بعد اليوم.

— أيكفي؟

— لا.

— ماذا تريد بعد؟

— لك أن تبادر إلى ذلك تلقائياً، من دون دعوتي الصريحة.

لك أن لا تدع هابيل في عراء الصمت.

— إلا أنه تكلم.

— لكن كلامه بقي أسير الحوار.

— لعلي فهمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

— ماذا لو أنتقلُ إلى حيث تقف وتتكلم؟

— لماذا؟

— أأكون أنا أم أصير أنت؟ أأصير، ولكن هناك؟

— ماذا لو حملتُ «هناك» معي ورحلتُ؟

— أأبقى يتيماً؟

— أنا متكلم أساساً...

— ... وأنا أيضاً.

— أنت تلعب ب«الضمير».

— ما أبشع هذا اللفظ في معناه!

— ما أجمَلُه في أدواره!

— فعلاً.

— ها نحن — أخيراً — اتفقنا على أمر!

— يا للصدفة!

— لا، لم نقل الشيء عينه.

— فعلاً، بدليل أنك تمعن في المماحكة.

...

— غير أن في الضمير ما ضمر، ما أضمر، ما يختفي، ما قد يشير إلى ضغينة، إلى مقلب، أو احتيال. هذا يغري طبعاً، مثلما يحدث للولد وهو يسرق: يرتجف متوجساً من مباغتة أحدهم له، بعصا أو سباب، فيما يمرر لسانه على شفتيه تلذذاً.

— ها أنت تكتب، فلا تحادثني!

— أتذْكُر جلسات «فحص الضمير»؟

— طبعاً. فيها تعلمتُ أن أكون مع نفسي، ولو للحظات قليلة.

ما كنتُ أعلم، يومها، أنني كنتُ أبتني لي قاعات فسيحة، غير أنني لن أقوى على تأثيثها إلا بعد وقت، بعد جهود مضنية.

— إلا أنك حولتَ تلك الجلسات عن غرضها!

— تقيدتُ بفحص الضمير، كما علموني إياه في «التعليم المسيحي»، في مرات قليلة: أن أكون متفقداً لأخطائي. ثم راقت لي الفكرة بعد وقت، في سياق آخر: أن أكون قوّاماً على نفسي، فلا أنتظر توجيهاً أو فتوى من أحد، أياً كان.

— دعني من هذا. لن نعاود التذكر، ولا التفقد. أليس كذلك؟

— أنتَ استدرجتني.

— هل آمل أن أتكلم كما لو أنني أنتَ؟

— هل آمل أن تستمع إلي كما لو أنكَ تتكلم وحدك؟

— هل آمل أن أكتب كما تتكلم؟

— هل آمل أن أتكلم كما تكتب؟

— هل آمل أن تكتب ما جرى بيننا؟

— لا حاجة لي، ولا لك، به.

— قد تكون لثالثنا حاجة به.

— ما له؟

— لا يتوانى عن توديعنا فيما يمعن في القول: «أهلاً، أهلاً...».

— ذلك أن المتكلم، بدل أن يفعل، يقول: «ماذا لو أفعل كذا أو كذا...؟».

— أما أنا فأختار — إن كان لي أن أختار — طريقة بريشت.

— وماذا كانت؟

— كان يدعو ممثليه، في التمارين، إلى نقل أدوارهم إلى ضمير الغائب، وفي صيغة الماضي.

— وماذا كانوا يفعلون إذ يخرجون من الخشبة؟

...

— أستسيغُ ما قلتَه للتو.

— إلا أنني لم أقصده، بل وصلتُ إليه.

— لا يهم، طالما أنه أقنعني.

— إلا أنه انبثق من دون أن يكون راجحاً.

— لا يهم، طالما أنه أخرجني، وجعلني أقف حيث أقف، مليئاً ومبثوثاً في آن.

— غير أنني قد لا أتبناه.

— في أسوأ الأحوال هو لقيط، ولكنه كامل الهيئة.

— ألكَ أن تبرزه لي من جديد؟

— تأخرتَ. أنا آسف.

— هل سألقاه؟

— ربما.

...

— لماذا لم تدعُني إلى حيث ذهبتَ؟

— كنتَ معنا أينما حللنا.

— أعود فأكرر السؤال: لماذا لم تدعُني؟

— لستَ — في هذه المرة على الأقل — من يقف فوق الخشبة، ولا في كواليسها.

— إلا أنها لم تكن لعبة.

— ربما.

تحاسبني، اليوم، فيما كان في إمكانك فعلُ ما قمنا به، أنا وهو.

— كان في ظني القيام بذلك.

— لهذا عمدتُ إلى الحوار، لا إلى الكتابة.

— غير أن له شكلاً كتابياً بدوره. ماذا ستفعل به؟

— لقد حصل.

— إلا أن فيه أموراً ووقائع...

— ... لكَ أن تُصدر تكذيباً، أو تصويباً، إن شئتَ.

— ها أنت تعاود الحوار من جديد. أما من سبيل إلى استعادته؟

— هذا يعنيكَ. ما عاد يعنيني.

— إلا أنك عدتَ إلى تواريخ، وصور فوتوغرافية، وشهادات... يصعب استعادة ذلك كله، وتوجيهُه في وجهات مختلفة.

— أنتَ أعلمُ بهذا مني.

— ماذا لو نعاود المسار عينه، ومعاً؟

— لن نعاود الخطى ذاتها أبداً. لعلك نسيتَ ما كنتَ قد كتبت.

— صحيح.

— ولكن ماذا لو استعدتَ المسار عينه؟ أكنتَ أضفت إليه مكاناً لم نقصده؟

— نعم.

— أين؟

— إلى جسر: أنت من جهة، وأنا من جهة.

— الصورة جميلة، تحتاج إلى تصوير، لا إلى محادثة.

— ماذا بإمكاني أن أفعل؟

— هذا يناسب التصوير الزيتي «النهضوي»: مرمّمو اللوحات والمنقبون في الطبقات اللونية يتوصلون، اليوم، إلى معرفة «ضربة» ريشة «المعلم» من ضربة تلميذه.

— أأنتَ معلمي؟ أأنا تلميذكَ؟

— لم أقصد هذا.

— ماذا أفعل؟

— يمكنكَ — إن شئتَ — أن تعيد نقر الحوارات بنفسك، بأصابعك، على الحاسوب.

— بماذا يختلف ما فعلتَه أنتَ على حاسوبك عما سأفعلُه أنا على حاسوبي؟

— صحيح. لكنني لن أخط الحوارات بيدي، إن كنتَ تشير إلى ذلك بكلامك.

— ماذا أفعل، إذن؟

— يمكنكَ أن تتبنى الحوارات، وأن تتكفل بها.

— أأنتَ موافق؟

— ...

...

— أيمكنني إجراء لعبة حسابية معكَ؟

— إن شئتَ.

— إن جمعتُ الواحد إلى واحد آخر، فما يكون الحاصل؟

— قد لا يكون واحداً، ولا اثنين، بل ثلاثة... بل أكثر من ذلك ربما.

— ربما جوقة؟

— ربما.

— ربما لعبة أخرى؟

— لا، الآن دوري: ماذا يحصل إن كتبَ عدة مؤلفين لدور مسرحي واحد؟

— قد يحصل ما يحصل لكاتب يتكلم بألسنة مختلفة، فيما لا يتوانى كل واحد منها عن القول: أنا، وأنا، وأنا...

— لقد وقفتُ على الشباك قبل قليل، بعد علمي بمجيئكَ، وانتبهتُ إلى أنك تمشي مشيتي نفسها.

— لا أزال أتجنب العملية الجراحية.

— غير أنك تتباطأ في المشي.

— لأنني كليل النظر، كما تعلم.

— لا، لأنك شديد الحذر.

— ألا يعني هذا الشيء نفسه؟ لعلك تطلب المماحكة.

— لا، أطلب شيئاً آخر.

— ما هو؟

— ما جرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ها أنتَ تتهرب مني... من جديد.

— أقولها مرة أولى وأخيرة: أتكلم وإن في الهذر كمن يملي وصيته الأخيرة.

— أبالتصميم عينه الذي لا يقبل في لحظتها أي تأجيل أو استسهال؟

— أعملُ وفق قاعدة قديمة: أعملُ كما لو أنني أموت غداً.

— مثل الجاحظ؟

— لا، لم يقل هذا، غيره قاله. الجاحظ — على ما يقولون — وقعتْ الكتب عليه فقتلتْه... لم يكن جاهزاً.

— لكنها استعارة من دون شك.

— لستُ مثل الجاحظ، بل مثل من يؤدي واجبه بالحزم عينه، وإن كان يعلم حق العلم أنه مصاب بمرض عضال سيودي بحياته في أي لحظة.

— ألهذا عليه أن يكون مستعداً ومصمماً في آن؟

— نعم.

— أهو واجبٌ فعلاً؟

هذه جسامة مريعة، لا يتكفل بها حتى الأنبياء!

— لا، هذا منتهى اللعبة وسحرها.

كيف لك أن تغوي غيرَك بها إن لم تكن مقتنعاً بما تقوم به. أتريدهم أن يقتنعوا بها من دونكَ، أو بعدك؟

— أتظن أنك سهَّلتَ الحوار؟

— ومن قال إني أحاوركَ!

— وهذا الذي يجري بيننا؟

— لا تتظاهر بأنك لا تعرف ماذا يجري. لستَ أقل براءة أو إثماً مني.

— ربما. لكن الكلام يغري بسطوته.

— على من؟ أعلى المستمع؟

أتريد أن تسبقني إلى مستمع؟

— ربما.

— هذا لا يفيد، إذ نصل معاً.

— ربما.

— لا، هذا أكيد.

— إلا أن لكلٍّ منا قولَه، وفي القول ما يغري أو ينفر.

— أتريد أن تقاسمني عائد الكلام؟

— ...

— هذا ما لن أسمح لك به.

— ...

— أيعقل هذا؟ أن يسابقني غيري إلى ما هو لي؟!

— أأنتَ تكلمني؟

— لماذا لا تجيب؟

— لأنك ترسل الكلام صوبي، ولكن ليس لي.

— وماذا تقول في ما لم أطرحه عليكَ؟

— أقول بالحماسة نفسها التي لكَ إذ تطرح هذا السؤال...

— ... أو غيره.

— طبعاً، ما دمنا نتبادل الجُمل.

— أستحسن الحديث عن كلام.

— لا عن «تكالم»، مثلما قلتُ ذات يوم.

— ولكن، هل هذا اللفظ موجود؟

— لا أعرف، إلا أن العربية تتيحه بصيغها الصرفية، و«عليها العماد»، كما كانوا يقولون.

— ولكن أَرِحْنا من فصحاك! لماذا تريد التأكيد على «التكالم»؟

— لأن فيه ما يقيمني، ما يقيمكَ، في وضعية أنسب.

— كيف ذلك؟

— إنه يفترض وجود طرفين أكيدين، معلنين...

— ... وهناك غيرهما.

— ربما. من تقصد؟

— قد يكون جالساً في عتمة، أمامنا، أو خلف باب.

— ماذا يتغير؟

— قد تُطلِق الكلمات صوبي فيما تتوجه إليه بها.

قد تخطب فيَّ فلا تحادثني.

قد تناديني كما لو أنني أقف على مبعدة عشرات الأمتار منك...

— أليس هذا أجدى من «حوار الطرشان»، مثلما يقولون؟

— لا أعرف، ما أعرفه هو أن هذا يؤدي في أحسن أحواله إلى تسويات...

— ... إلى تسويات لفظية؛ وهي لا تعني سوى استمرار الخلاف بألفاظ أخرى، أو في سياقات متبدلة بعض الشيء.

— أضعتَني، فما عدتُ أدرك ما أقول.

— هذا أفضل من أن تقول ما لا تقصده بالضرورة.

لقد انتبهتُ قبل يومين إلى أحدهم، في قاعة عمومية، في وضعية مريبة: كان يمسك بميكروفون ولكن كمن يمسك بقوة أكبر منه، ولها طاقة جذب خفية لا تظهر إلا إذا لاحظنا أنه كان يتبعها، ويلوي جسمه تبعاً لتموجاتها. وأقول الآن إنه كان منقاداً مثلما يقود كلبٌ صاحبَه. أما رأيتَ ذلك ذات يوم: كيف يصبح الكلبُ المطيع لصاحبه متحكماً به وبحركاته؟

— أتعني أن الكلام هو الذي يتلفظ في فمه؟

— أو أقول إن الميكروفون يثير شهوة الكلام فيه.

— هذا ما تفعله معي، أليس كذلك؟

— لا، أبداً، بل أستقصي في الكلام ما يمكنه أن يرتبه ويطويه ويتجنبه.

— هكذا لا تقف في مكان بعينه.

— أليس لكل مقام مقال؟ ألا يعني أن الكلام ينقاد أو يميل؟

— ألا يكون تمريناً؟

— ولمَ لا؟ أليس في التمرين ما يُسَخِّن عضلات الحكي؟

— بلى، وفيه ما يبدو تجريباً غير مقصود...

— ... وهذا هو المقصود.

— لن أتابع، إذ إنك استدرجتَني.

— وما الضرر من ذلك؟

— الضرر هو أنك تعتاد على الكلام فوق خيط دقيق فيما أكتفي بتنبيهك.

— افعلّها.

— في مناسبة أخرى.

— وما الذي جرى بيننا؟

— من سأل؟ ومن أجاب؟

— هل ما أقوله يخصني أم يخصك؟

— هو تمرين، ليس إلا.

— أهي «مناخات الثقة»؟

— ماذا تعني؟

— أما كان السفيران يعملان على بنائها للخروج من الحديقة، والجلوس معاً فوق طاولة؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— هذا أنسب.

— أأنتَ مرتاح، على الرغم من هذه الجلبة؟

— على الأقل يمكنني أن ألمسكَ إذا شئت.

— هذا يفسد لعبتك. يجب أن تبقى مسافة بيننا.

— عن أي مسافة تتحدث، وأنا أكاد أن أمسك بأصابعك عند نقرك على الحاسوب!

— يعنيني أن أختفي إذا شئتُ. أو أن أظهر في هيئة جانبية. أو أن أتجنب الجواب المباشر...

ولو كان لي أن أختار لقلتُ من جديد: يصعب علي الكلام، أحب أن أرى.

— إلا أنك تخسر عائد الكلام.

— عائده الشخصي، عائده الاجتماعي، فقط.

— وماذا تربح؟

— متعة التنقل... ما يعدد المتعة ويشعِّبها ويبددها كذلك.

— أأنتَ تتوزع في ذلك؟

— أريد منه أن يهتم بما يقال، بالتبادل نفسه، ليس إلا.

ألم تشارك أبداً في حفل تنكري؟

— التشبيه جميل، لكنه متوقع.

— أتريد أن تخبركَ شريكتُك في الرقص بهيئة قناعها قبل وصولها إلى الحفل أم أن تراقصها على أنها غيرها؟ أم تريد أن تراقص غيرها؟

— لماذا لم تعتمد اسماً مستعاراً؟ أما كان ذلك أفضل؟

— ربما. لكن ألم تنتبه إلى ما أصاب علي أحمد سعيد إسبر؟

— ما أصابه؟

— بات اسمه المستعار أشهر من اسمه العائلي.

— غيرُه استطاع التخفي، مثل رومان غاري...

— ... وغيره.

هنري ميشو منع جريدة «ليبراسيون» من نشر صورته الفوتوغرافية.

— هل أنت متمسك فعلاً بهذه الصورة المنزهة؟

— لهذا السؤال إجابات متعددة، منها شخصي ومنها ثقافي، ما يلتقي وما يختلف، وفي آن.

— إلا أنك تجيب مثل أديب! كما في لقاء ثقافي لمجلة أسبوعية!

— ألستُ بدلاً عن ضائع، كما أطلقتَ علي؟

— أنتَ قلتَها عني.

— أما من جواب إذن؟

— عن ماذا؟

— ها أنتَ تقطع مع التكالم، مثلما كنت قد طالبت!

— هذا نوع من التكالم، عدا أن الصمت أو إبداء بعض الحركات والتصرفات إسهام فيه أيضاً.

— أعود إلى السؤال عينه: هل أنت متمسك فعلاً بهذه الصورة المنزهة؟

— أنا متمسك بهذه الرغبة التي لي في التحريك، وهي لغيري أيضاً، إلا أنني أستحسن التأكد منها، من احتمالاتها التي تسبقني إلى الحاسوب، أو التي

تتدافعني فيما أظن أنني أدفعها أمامي؛ وهي أسرع من خطوي، من نَفَسي بالأحرى.

— أين نحن الآن؟

— في هذا المقهى الذي أحب.

— أأنت تكتب أم تتكلم؟

— لعلي تورطت من حيث لا أدري.

— ولِمَ لا؟

— هل يفيد القرار؟

هو قسر وإجبار أحياناً، ما دام لا يشتمل على ما يمكن تسميته بمَيَلان الكلام.

— أهو «المركب السكران»؟

— لا، قد يكون المركب السهران.

— على ماذا تحنو بعينيك؟

— على خشيتي.

— ممن؟

— ها أنت تدفعني إلى حيث لا أريد، إلى حيث أخشى.

— أنسيت أن فعل «خشي» لا يستقيم من دون ذكر ما يستدعيه؟

— أنسيتَ أن أنسي الحاج وضع نقطة بعد فعل «أخاف» من دون خوف من ناصيف اليازجي؟

— تعود إلى المجلة الأسبوعية... تتدبر دوماً حلولاً للخروج... أليس هذا خروجاً لفظياً؟

— لا، بل خروج نفسي مرتبك.

— أنحن حول طاولة صفراء مخططة أم أمام حاسوبين متصلين؟

— ما الذي قلتَه أنتَ وما الذي قلتُه أنا؟

— ألا يخلّ هذا بالعقد الذي بيننا؟

— عن أي عقد تتحدث؟ أنتوقف؟

— لم أُنهِ شربَ قهوتي بعد.

— لكنها باردة، من دون شك.

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

— سأنتحي جانباً، على أي حال، من دون أن أختفي.

سأنتهي إلى وضع خطوات في هواء...

— مهلاً، مهلاً... أتريدني أن أصدق ما تقوله وتستعيده من سجلات هذه الصورة المنزهة؟

— لنتوقف. ما عدتُ أكيداً مما أقول.

— ولماذا لا تتكلم من دون أن تمسك بالقول؟

— هذا ما رسمتُه لنفسي...

— ... لكنك لم تتقيد به.

— أتعرف ماذا حدث لي أمس؟

— قلْه. ستقوله في جميع الأحوال.

— كنتُ مدعواً لحضور مناقشة كتاب جديد لأحد أساتذتي السابقين في الجامعة: التقيتُ بمجرد الدخول إلى القاعة بصديق الدراسة؛ ساعدتُه على التقدم لإصابته بكسر في قدمه اليسرى، وعلى الجلوس بجانبي.

بعد انتهاء المقدم من تقديمه، وشروع أول المتكلمين بالكلام، تنبهتُ إلى صدور همهمات من صديقي: لعله متوجع في جلسته... أدرتُ وجهي صوبه، وسألته ما إذا كان في حاجة إلى مساعدة، فنفى ذلك مبتسماً. عدتُ إلى جلستي، وعدت أستمع من جديد لهمهمات ما لبثتْ أن تصاعدت، فأصختُ السمع، فإذا به صوت صديقي: كان صوته يعلو أو ينخفض تبعاً لوتيرة كلام المحاضر، لكنه كان يتكلم ابتداء من مطالع جمل المحاضر، ثم لا يلبث أن يقودها بنفسه في وجهات أخرى.

— صديقُك شريك في المحاضرة.

— لا، هو يلتذ كما يشاء.

— أهو يقود الجُمل أم تتنزل عبر صوته؟

— وماذا عن تكالمنا؟ أهو مسبوق؟ أهو يحدث للتو؟ أنحن شريكان أم أن واحداً يسأل والآخر يجيب؟

— أسئلة كثيرة. لنتوقف. لنتوقف.

— إذا شئت.

— الكلمة الأخيرة لي. الكلمة الأخيرة لي. الكلمة الأخيرة لي. الكلمة الأخيرة لي.

...

— أتسمع ما أقول؟

— ما تكتب بالأحرى.

— ما أكتب فعلاً.

— هذا ما سبق أن كتبتَ؛ قبل أن نلتقي.

— إذ أكتب تكون موجوداً: قاعدٌ في قاعة انتظار، أو تحت مرمى النظر.

— أكون متفرجاً، أليس كذلك؟

— لا. قد تصدر عن المتفرج وشوشات، قد يقوم بحركات في جلسته، أما أنت فلا.

أنت قارئ في صيغة مستمع.

— لهذا أنا صامت. أنت جعلتني صامتاً، فلا تنتقد غيابي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ها أنت جلست — أخيراً — في مقعد للسرد!

— هذا ما طلبتَ، أليس كذلك؟

— أتفصح أم تسرد؟

— أهناك فارق بينهما؟

— ألا ترى هذه العلاقة — الأكيدة، على ما أعتقد — بين «الإفصاح» عن الشيء وبين «الفصحى»؟

— بلى، لكنها لقيا لغوية.

— وأنتَ ماذا وجدتَ؟ ماذا قررتَ؟

— لن أجد شيئاً ما دمت أفكر في طبق الأكل.

...

— بقدر ما يحلو لي التنزه في مطاعم، في أسواق، يحلو لي أيضاَ أن أتمدد فوق أرض ترابية، فوق ألفاظ، لكي أشدد السمع على هديرها...

— ... على هدير المياه الدفين.

— إلا أنك قد تستمع إلى ضربات قلبك فيما تظن أنك تستطلع مجيء عديدين ممن يدبّون صامتين بأقدامهم الغليظة.

— هذه الأقدام، أما لها أن تتكلم مثل تلك التي تسعى فوق بلاط المطاعم والأسواق؟

— ستكون، عندها، كائنات من قول.

ستكون لها سبل خافية وملتوية في تنقلها.

ستكون لها مسارات ومشاغل تلتقي فيها مثلما تختفي...

— ... بخلاف كائنات أخرى تحتاج دائماً إلى أن تنهي حركتها أو تعبيرها...

— ... كما في الرواية...

— ... أو في المسرح.

— من المتكلم بيننا؟ من المخاطَب بيننا؟

— تعود إلى السؤال عينه!

...

— لماذا لا تتكلم بدل أن تشرح الكلام؟

— هل أفسد ما بيننا؟

— لا. لكنك تجعلني في وضعية إصغاء.

— لا، قد أكون في وضعية من يفهم، من يشرح لنفسه، قبل غيره، ما يدور.

— لماذا تريد أن تفهم؟ أهي الخشية من عواقب داهمة؟

— أتريد أن تقول إنني أشعر بمغبات ما أقترف، فأراجعه قبل حدوثه، أو أستوقفه صورة صورة قبل أن أبسطه؟

— هذا ما أتبين في ما تفعل؛ بل أخالُك أحياناً مثل من يشرح تعليمات الرقص من دون أن يرقص.

— أتريد أن تقول إنني أستبقُ سلفاً ما قد يوقعني في خطأ؟

— أنت تخاف أن تخطىء، على ما أظن: ألهذا أسرعتَ إلى غسل يديك بمجرد أن انتهيتَ من الأكل؟

— لا، بل لأنني أستسيغ الأكل بأصابعي. ألم تلحظ ماذا فعلتُ؟

— أتفضلُ إرجاء المعنى، أو تعطيله؟

أتفضل توجيه «الرسائل» إلى أصحابها؟

أتفضل هذراً، أو غرابة تفضي إلى هباء جمالي في أحسن الأحوال؟

أتفضل ضبط العلاقات الممكنة بين قابليات التعبير؟

— ألا تسألني لحوار في «نزوى»؟

— أما من جواب؟

— الجواب الشافي قد يكون متوافراً — كما سبقَ أن قلتَ — في نقلات لعبة الشطرنج: لا أحد يقوى على ضبطها؛ هي متفلتة حكماً.

— ولماذا تطلب مقداراً من الضبط المسبق؟

— حتى وإن صح ذلك عن مؤلف، فإنه ينقاد بالضرورة إلى ما يتكشف له، ويتدبر له سبيلاً في التدافعات. هذا أمر لا يمكن أن ينفيه، ما دام يتمتع بوضعية، بل بإلزام، وهو أنه من يضع «الاستراتيجية»؛ ما دام أنه يتقدم ألفاظَه مثل قائد، لا يراقب المعركة عن بعد، بل هو الفارس الأول فيها كما في الحروب القديمة.

— أوقعتَ على هذا في «نزوى» أيضاً؟

— ...

— غير أنك حدثتني أيضاً عن وجوب «اللعب». هل تلعب فعلاً؟

— طبعاً. غيرُ ذلك قد يكون تعبيراً عن افتتان لغوي مكين.

— وما الضرر في ذلك؟

— هو أن يمعن في استحداث «الصدمة الجمالية» إمعاناً لا يشير إلا إلى ملَكة المؤلف، إلى مقدرته «الإعجازية». أخشى هذا الافتتان المتمادي الذي ينهل من مصدر ديني يقوم على الإدهاش بالكلام، كما ينهل أيضاً من معين رومنسي...

— ... ها أنتَ تضعني في الصف من جديد!

— ها أنا ملزم بقول ما يخفى في سحر الكلمات من «أعاجيب» باهرة. أشبه بالسحرة تروق لك فيهم مقدرتهم على إيهامك، لا ما يعرضونه عليك.

— من تقصد؟

— أكثر من واحد، أكثر من سبيل.

— لو تسمي.

— ولماذا أسمي؟!

— لكي تتحمل مسؤولية كلامك.

— لا أتحمله إلا معك. وقد أخرج من هذا المطعم وأتنكر، أمام أول سائل، لوجود دعوة العشاء أساساً.

— غير أنك، من فرط التقشف، قد تكتفي بحدود الورقة.

— لماذا تعود بي إلى المجلة الفصلية؟ ألا نخرج؟

— أريد البقاء — ولو للحظات بعد — فوق مساحة الورقة.

— إلا أن حدودها خافية، تتعدى هذه الطاولة.

— تكتفي الورقة بتأمل ما يحدث لها.

— ألا يعني هذا الوفاءَ لما يتصاعد من الورقة، لا لما قد تفرضه عليها إملاءات أو رسوم من خارجها؟

— أقول لنفسي أحياناً إنك قادر — متى شئت — على أن تبسط الألفاظ باليسر الذي للخادمة المعتنية بطاولتنا، وقبلها باليسر الذي للطاهي المعد لطبقَينا. لعلك تعلمت هذا في عمل يومي؟

— ألا تلحظ لغة التراسل الإلكترونية؟ أما حدث لك أن كتبتَ رسائل بالفرنسية وفق برنامج لغوي إنكليزي، ما أفقرَ المكتوب عدداً من الحركات اللازمة فيه؟ ألا تقرأ الإعلانات الكثيرة التي تجتمع فيها جمل من لغات مختلفة؟ ألا تنتبه إلى أن لغات المحادثة تستعير ألفاظاً من بعضها من دون اضطراب أو اعتذار؟

— خففْ عني هذه الأمثلة، لأنني قد أورد غيرها مما يخالفها. ما يعنيني هو سؤالك عن اليسر الذي قد يكون لك في مقاربة الجمل.

— لنعدْ إلى الدوريات: الصحافة، إذا شئت، تيسِّر الكتابة. لها مشاغل لغوية يومية، «شغّالة» أكثر من اجتماعات «مجامع اللغة»، ولها سرعة في إيجاد

الحلول قد لا تتوافر حتى للمترجم الفوري. هذا يشير إلى جانب وحسب من عملياتها، وهو أنها، مثل أخبارها التي تستقيها من الشوارع، تُسرعُ الخطى بدورها، وتسعى إلى لملمة الشظايا، وإلى فهم متعجل طبعاً لما قد يصدمها أو يباغتها عند قارعة طريق.

— ها أنت تتحدث مثلما طلبت.

— ها أنت تجلسني في كرسي الاعتراف مرة أخرى!

— ما حيلتي؟

— أن تتدبر سبيلاً آخر.

— حسناً...

— ... إلى مناسبة أخرى.

شكراً على دعوة العشاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أتَّصِلُ بكَ حسب الاتفاق.

— أتعبْتَني في اللحاق بي، في استفساري عن هذا أو ذاك. ما يضايقني هو أنك تعرفها تماماً. مثلي. وأنت لا تقوى — إن أردتَ أن تعرف حقيقة ما يجري — على مفاجأتي. ماذا تريد أن تعرف؟

أسمح لك بوقفة واحدة: هي هذه.

— منظر مؤثر...

— كان ذلك في طائرة متجهة من تونس إلى باريس، في الشتاء، بعد الظهر. لم تكن الطائرة مكتظة، ما مَكَّنني من تفحص رؤوس الراكبين ملياً من خلف. وهو ما خبرتُه قبل سنوات، في درس الفلسفة، إذ أفادنا الأستاذ أننا قادرون — إن ركزنا النظر في أحدهم من خلف — على إدارة رأسه، كما لو أننا وجَّهْنا له تحية وما علينا سوى انتظار الرد بالمثل.

كان على مقربة مني، في الصف المقابل، في زاوية جانبية، لكنها تمكنني من التركيز عليه. لم تنجح محاولتي. كان منكباً على ما يشغله، من دون أن أتبيّنه. تابعتُ المحاولة من جديد، بعد إقلاع الطائرة، من دون نجاح، خصوصاً أنه استعاد انكبابه السابق.

كررتُ المحاولة من جديد، مع سيدة هذه المرة، من دون نجاح يذكر. وكذلك مع سيدة أخرى...

لعلها مساوىء الارتفاع الجوي...

التهيتُ في أمور أخرى. وإذا بي أنتبه إلى توقف السيد عن أشغاله، والتفاتِه إلى خلف. كان يحدق بي حينما تنبهتُ له من جديد. كاد أن يوجه لي تحية إذ افترَّتْ شفتاه عن ابتسامة تكاد أن تكون طيفَها الأكيد. حرتُ في أمري، فأنا لا أعرفه أو لا أتذكره ربما. نهض من مقعده وتوجه صوبي مبادراً بالقول: «عفواً. أأنتَ ذاهب إلى باريس؟». أجبتُه: «نعم. هل من خدمة؟». عاد إلى مقعده من جديد، وأتى بمجموعة من بطاقات المعايدة، التي كان مشغولاً بكتابتها، على ما يبدو، وتابع حديثه: «ألكَ أن تضع هذه الرسائل في صندوق البريد في المطار؟».

«طبعاً». أخذتُ منه الرسائل، ووضعتُها في حقيبة اليد، بفعلٍ تلقائي لا يرقى إليه أي تردد.

— لماذا فعلتَ ذلك؟

— لا أعرف.

— أما كان في إمكانه فعلُ ذلك؟

— لا أعرف.

— من كان؟

— عصام سرطاوي.

— من هو؟

— من كان بالأحرى؟

— أمات؟

— اغتيل بعد شهور على هذه الحادثة.

— لماذا؟

— بسبب الاتصالات التي أجراها مع إسرائيليين بتكليف من ياسر عرفات.

— هل كان الذين اغتالوه يرسلون بطاقات معايدة؟

— لا أعرف.

هل كان ياسر عرفات يرسل بطاقات معايدة؟

— لا أعرف.

— ماذا تريد أن تعرف بعد؟ ماذا لو نتسلى بدل أن تدقق؟

— أعطني مثلاً.

— ماذا لو أنقذتُ ليوبولد سيدار سنغور من ورطة أكيدة؟

ماذا لو ضبطتُ خورخي أمادو، وهو يمرر يده، بل يداعب ساق سيدة مغربية جالسة إلى طاولته مع غيره في عشاء؟

— أهي معروفة؟

— ماذا لو طلبَ علي أحمد سعيد إسبر مني التخلص ليلاً من إحداهن، التي كانت تشخص إليه كما لو أنه آلان ديلون؟

— أحَصَلَ هذا؟

— أتريد أن تعرف ماذا حدث لي في المرحاض في مطار الدوحة؟

— نعم.

— وقفتُ بالصف — وهو ما لم يحدث لي في السابق في مطار — وتساءلت: ماذا كان سيحدث لو كان المطار في بيجينغ أو غيرها من المدن الصينية؟ ماذا لو قرر الصينيون الدخول إلى المراحيض في الثانية عينها؟ ماذا كان سيصيب الأرض تحتهم؟

— وماذا عن...

— ... هذا يكفي.

أأعجبكَ الحوار عبر الهاتف؟

— لكنك لم تمهلني...

— عفواً، لقد تأخرت عن موعدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ها أنتَ تقترب كثيراً. للغاية!

كما لو أننا في شق جملة واحدة، أليس كذلك؟ نروح ونجيء، أو نستقصي احتمالات تبدو واسعة للطافتها.

— ماذا تريد؟ أأن تفضي الجملة إلى شجرة، أو إلى صياح في سوق؟ أأن تتنفس براحة، ومن دون هذا الجهد الذي يشق أرضاً بمحراثه؟

...

— أأنا مخاطَب؟

— ... ومتكلم أيضاً.

— أقصد شيئاً آخر: ما تعرفه.

أيمكنني الخروج؟

— لقد خرجتَ. أنت لا تقيم في بهمة.

— ألي أن أكتفي بهذا الضوء المنبعث بيننا؟

— هو أكثر من ضوء، ويحيط بغيره.

— ماذا تريد؟ أأن أصفعك؟

— مثلاً. أو أن أتدبر سياقاً آخر.

— إلا أن الكلام يحيي. ها أنا أسمعك. ها أنت تعارضني وتستفزني.

— هذا لا يكفي.

— ما يصدر يتعداني ويشملك. أنت لا تؤدي قولاً مرسوماً.

— مهما قلت: هذا لا يساوي متعة الخروج إلى العالم.

— ...

— أنت في حركة لا عودة منها.

— هذا لا يساوي متعة الخروج إلى العالم.

— ...

...

— بمجرد أن تسمعني، أن ترد علي، تخاصمني حيث أقف.

— بمجرد أن أكون تكون: هذه تعرفها، لكنني أضيف إليها الآن: بمجرد أن نكون، أنت وأنا، يكون ثالث، يكون غيرنا: غيرنا الجالس من دون أن ينبث ببنت شفة؛ وغيرنا الذي يتعين في مستقبل الكلام.

— لم تعد تغني في الحمام، إذن؟

— لأنني انتهيت إلى محادثتك.

— لم تعد معطوب السمع والكلام، إذن؟

— على رداءة ما أسمع.

— من المتكلم؟ من المستمع؟

— أنت وأنا لسنا اثنين: واحد يسأل وآخر يجيب، واحد يتكلم وآخر يتكلم أيضاً.

أنت وأنا: نتقدم، الواحد في اتجاه الآخر.

— لعلنا على جسر من دون أن ننتقل إليه.

...

— أريد أن أستعيد قولي السابق: بمجرد أن تسمعني، أن ترد علي، تخاصمني حيث أقف.

— لماذا تستعيده؟

— لم يرق لي... حتى الحديث عن ثالث لم يرق لي.

— ماذا تريد؟

— أريد أن أتحدث — أن نتحدث — عن متنزهين متفرقين في حشد، لا عن حشد.

— أأنت في الصف، أو في البحث، الآن؟

— لا، في هذه الحديقة التي يروق لي فيها التنزه.

— أسألك من جديد: ماذا تريد؟

— أريد أن نكون في الكلام كما نحن في الحديقة.

ألا ترانا كيف نحن: نتكلم فيما نتمشى، أو بالعكس؟ قد يتقاطع كلامنا، وقد يتفرق...

— دعني من هذا.

أتريد أن تعود بي إلى الغفلة الصامتة؟

— أريد أن أكون في قرارة نفسي، كما يقولون.

— أين وصلتَ فيها؟

— وصلتُ إلى أنني أقف أمامك، أو أناديك، أو أخاطبك عن بعد، أو أرد عما افترضتُ أنك قلته، أو أنك ستقوله...

— هذا يريحني.

— لا أنا.

هذا يشل حركتي، حركتك، حركتنا.

— لا، أبداً.

ألم تتوقف عند جسدنا؟ ألم تلحظ أن كل عضو فيه يحتاج إلى ثانيه؟

— ...

— أتريد أن نتفقدها ونحصيها معاً، من العينين والأذنين حتى اليدين والقدمين؟

— ...

— أليس هذا مثل شفتين لقول واحد؟

— ...

— أم هو قول واحد لشفتين؟

— ...

— أأنتَ قلت هذا أم أنا قلته؟

— ...

— لا يهم.

— هذا كلام يقلقني إن كان صحيحاً.

— ماذا يقلقك فيه؟

— ألم تنتبه إلى صيغة المثنى في العربية؟

— دعْك من هذه الترهات.

ماذا تريد؟ أسألك للمرة الرابعة أو الخامسة...

— أن أكون من دون أن تبالي بي، من دون أن أبالي بأنك قد تبالي بي وقد لا تبالي بي...

— ...

— أيتوجب علي كلما طلبتُ أن أبتسم أن أتقدم من مرآة؟

دعْكَ من آلة التسجيل.

ألا ترى كيف ينظرون إلينا؟!

— ماذا لو تحملها بدورك؟

...

— والطائرة التي من ورق...

— ... ما لها؟

— لا تزال في سمائها.

— أتريدها أن تتوقف عن الطيران؟

— لا، أن تحملني معها.

— ألا زلت تنتظرها؟ ألهذا تهوى المشي؟

— أستعيد في ذلك، وبمقادير، أحاسيس المقامر من دون شك.

— هذا كلام كبير وقليل في آن. ماذا يعني؟

— نعم، إلا أنه مما أهجس به وأتساءل عنه.

— ها أنتَ تعود إلى غرفة الظنون التي تحت مراقبتك.

— نعم.

— ماذا كنت تريد، أو ماذا تريد مما تقول؟

— ما قلتُ.

— إلى ماذا ترمي منه؟

— إلى المقامرة نفسها.

— وما تطلب ربحَه؟

— ما ربحتُه.

— وماذا ربحتَ؟

— صار في حسابي.

— كيف أحسبُه؟

— إن أطلتُ الكلام فيه قد أخسر بعض العائد منه.

— أي عائد؟

— ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— أنتَ رفيق درب: لازمتَني، وها أنت تتبدى.

ها أنت تجلس أمامي.

— أكنتُ خافياً إلى هذه الدرجة؟

— لا، إلا أنك كنت تظهر بين وقت وآخر.

ألي أن أجلس في مكانك؟ أن نتبادل مقعدَينا؟

— إن شئت.

أبطاقة سفري في جيبك؟

— لماذا؟

— لأنني لم أتسلّمها منك.

— لماذا تريدها؟

— لإظهارها عند الضرورة.

— المقعدان محجوزان سلفاً...

هذا قطار لا تحسن الصعود إليه من دون حجز مسبق.

— لماذا طلبتَ تبديل مقعدك؟

— هذه متعتي في السفر: أن أتصفح المناظر بالمقلوب، كما الآن، أو أن أتبعَها متدافعةً كما في ركض العدّائين.

— كأنك تريد أن تصل قبل القطار؟

— هذه أمنية أي مسافر؛ وهو ما يفعله قبل الصعود إلى الحافلة.

— هكذا لا تعرف ما إذا كنت تودع المناظر أم تستقبلها، تراجعها أم تكتشفها.

— مثلنا.

— كيف ذلك؟

— أليس للقطار سكتان؟

— لعلك تذهب بعيداً في التشبيه.

— هذا أفضل من التشابيه السابقة.

— ربما، إلا أنني لا أبحث عما يجعل الكلام جميلاً.

— أنا أبحث عن ذلك. أما تحدثتَ سابقاً عن سياق؟

— بلى. ولكن ماذا يغريك في القطار؟

— تقفُ فيما يتنقل. تنام فيما يعمل. تركض فيه من دون أن تصل. تخفف سرعتك من دون أن يبالي بك. لك فيه أن تجلس وفق اتجاهه، أو بالعكس. بل يمكنك أن تقف بين مقعدين مثل مراقب فوق رصيف القطارات يراقب الواصلين مثل المغادرين. فيه اتجاهات مختلفة، ولكن فوق سكتين تتعاونان للوصول إلى الوجهة عينها.

— مثل صنارتَي الوالدة في الحياكة.

— إذا شئتَ.

— أتتعاونان فعلاً؟

— تتوازيان وتشتركان في العمل عينه.

— عمّ تتكلم؟

— لعلنا وصلنا.

— لم نغادر بعد.

— ألي أن أبدل مقعدي؟

— أمن جديد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

— ألا يتنفس، هنا، أحد؟

ألا يبلغ هذا الكلام أحداً؟

...

أين أنتما؟

أتتركاني أقف وحدي في هذا البياض الحالك؟

...

لعلهما توجها إلى غيري.

...

إني أشعر بالبرد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المؤلف

أستاذ (جامعة البلمند — لبنان)، وشاعر، ومترجم ودارس للأدبيات والجماليات.

له في الشعر الكتب التالية: «فتات البياض»، و«رشم»، و«تخت شرقي»، و«حاطب ليل»، و«غيري بصفة كوني»، و«إعراباً لشكل»، و«لا تبحث عن معنى لعله يلقاك»، و«تلدني كلماتي».

له أعمال شعرية — فنية: «رشم» (مع جمال عبد الرحيم)، و«شغف» (مع محمد فتحي أبو النجا)، و«تواشجات» (مع: وجدان وإيتيل عدنان وغادة جمال وجمال عبد الرحيم وهناء مال الله ومحمد أبو النجا وفيصل السمرة)، و«عتبات للرحيل... وللوصول أيضاً» (مع سالم اللبان).

وله شعر مترجم إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية وغيرها، وأصدر عنه الدكتور نعوم أبي راشد مختارات بالفرنسية بعنوان: «عتمات متربصة»، وأصدر عنه الدكتور مصطفى الكيلاني كتاباً دراسياً بعنوان: «شربل داغر: الرغبة في القصيدة».

وله في الأدبيات الكتب التالية: «التقاليد الشفوية العربية» (بالفرنسية)، و«الشعرية العربية الحديثة»، و«سنغور: الإفريقي ذو النزعة الإنسانية» (بالفرنسية)، و«العربية في لبنان»، و«عصر النهضة: مقدمات ليبرالية للحداثة»، و«تنورين في الحقبة العثمانية: حجر، بشر، عامر وداتر».

وله في الجماليات الكتب التالية: «الحروفية العربية: فن وهوية»، و«مذاهب الحسن: قراءة معجمية — تاريخية للفنون في العربية»، و«الفن الإسلامي في المصادر العربية: صناعة الزينة والجمال»، و«اللوحة العربية بين سياق وأفق»، و«الفن والشرق: الملكية والمعنى في التداول» (مجلدان)، و«العين واللوحة: المحترفات العربية».

وله في الترجمة الكتب التالية: «العابر الهائل بنعال من ريح»، و«دم أسود»، و«أنطولوجيا الشعر الزنجي — الإفريقي»، و«الوصية» لريلكه، و«أندريه شديد: شملُ تشابهٍ ضائع»، و«ليوبولد سيدار سنغور: طام — طام زنجي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنــــاة</u>

فهرس..

عن الرواية..
١
٢
٣
٤
٥
المؤلف